

التجديد

في الأدب الإنجليزي الحديث

تأليف

سلاهمون مكي

مؤلفات أخرى لسلامه موسى

نظرية التطور وأصل الانسان

اليوم والغد

مختارات سلامه موسى

في الحياة والادب

منع الحمل وضبط التناسل

قصص مختلفة

أحلام الفلاسفة

جيوبنا وجيوب الاجانب

العقل الباطن

أشهر قصص الحب التاريخية

حرية الفكر وابطالها

أشهر الخطب ومشاهير الخطباء

نحت الطبع

غاندى والحركة الهندية

فهرست

صفحة

- ٩ التجديد فى الادب الانجليزى
١٤ جمود العصر الفكتورى
١٨ الرجعيون الثائرون
٢٢ بواعث التجديد
٢٥ بعض الاجانب وأثرهم فى الادب الانجليزى
٣٢ اثنان من الرواد
٣٦ المنحطون فى الادب الانجليزى
٤٠ كبلنج : شاعر الاستعمار
٤٤ الاقتصاد فى الادب الجديد
٤٧ برنارد شو
٥٠ الدراما الاجتماعية
٥٤ فلسفة برنارد شو
٥٩ من داروين الى برغسون
٦٤ ولز
٦٨ دراسات ولز الاجتماعية
٧٢ ولز بين الوطنية والاجتماعية
٧٦ جالزورنى
٧٩ رجال الذهن فى انجلترا
٨٣ الثائرون
٨٧ لورنس أحد الثائرين
٩٠ جيمس جويس
٩٣ الدوس هو كسلى

obeykandi.com

المقدمة

هذا الكتاب هو عرض ونقد للأدب الأنجليزى فى السنين الأربعين الماضية . وفى هذه المدة ظهر أدباء ثأرون على التقاليد فى هذا الأدب ومجددون له . وقد حاولت أن أبين للقارئ العربى المغزى من هذا التجديد . وعندى أن التجديد فى الأدب هذه الأيام لا يعنى شيئاً آخر سوى التجديد فى الحياة . وهذا هو ما نفهمه من المجددين الانجليز الذين نعرضهم فى الفصول التالية . فان الأديب الانجليزى يتصل بالحياة ويتأثر بها ويؤثر فيها وهو ينتقد أسلوب العيش أكثر مما ينتقد أسلوب الكتابة . وهذا خلاف ما نجد من طبقة الأدباء التقليديين فى مصر حيث الاهتمام كبير بالأسلوب الكتابى فى حين ليس هناك اهتمام أصلاً بأسلوب العيش . فان الأديب التقليدى يعنى مثلاً بأسلوب الجاحظ الكتابى ولا يعنى بأسلوب الفلاح المصرى فى العيش . وهو يكتب عن العرب ومجدهم وتاريخهم ولا يكتب عن مصر ونكباتها الحاضرة وما تعانيه من مظالم اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية . ولذلك فأن أدبه هو أدب الكتب الذى يجعله يعيش وهو فى عزلة عن الوسط الذى يحيط به . وهو هنا يشبه أدباء القرون الوسطى فى أوروبا والعالم العربى

ولكن الأدب الأوروبى الحديث ، وخاصة الأدب الانجليزى ، هو أدب الحياة ينتقد المعاش والغايات ويجعلها موضوعه سواء فى القصة أو المقالة .

وهو لذلك يتصل بأنواع النشاط الانساني كله . فللأديب رأيه في العلم والصناعة والاقتصاد والطب والزواج والتعليم والصحافة بل من الأدباء الانجليز ، مثل برنارد شو ، من ينتقد النظريات الطبية . ومنهم من يدعو الى الإيمان بدني جديد . شعاع : « نظرية جديدة » .

والحق أن التجديد في الأدب يشبه التجديد في الفلسفة . فقد كانت الفلسفة القديمة ترفع عن درس الحياة الدنيا وترصد نفسها لدرس كنه الأشياء والفرق بين ما نعرفه عن الشيء وماهية هذا الشيء . وكانت تبحث ما قبل الوجود وما بعده وهي في ذلك كله تبتعد عن الناس ومعايشهم . ولكن الفلسفة الجديدة تدعو الى الكف عن البحث عن كنه الأشياء وتقنع باستخدامها لمصلحة الانسان . وكذلك الحال في الأدب فإنه كان يعتكف بين الكتب ويرفع عن نقد المعاش وغاية الانظمة الاجتماعية والاقتصادية . وكان الأديب يدأب في الاجترار لا يفتدى مما حوله ولكنه يفتدى بالمؤلفات القديمة . أما الآن فان الأديب الجديد يكاد ينظر الى الادب القديم نظرة يكون الى العلوم القديمة فهو يطلب التجربة والاختبار بنفس الروح الذي طلبهما به علماء النهضة . وذلك لأنه يشك في قيمة المقاييس القديمة . ثم هو يستخدم أدبه ، كما يستخدم الفيلسوف الجديد فلسفته ، لمصلحة الانسان . فيبحث أساليب العيش والاجتماع ولا يكاد يبالى بأساليب الكتابة . حقا : أصبحت : حضا : بجهد : أساليب

ومع اني عرضت لطائفة من الادباء في مدى السنين الاربعين الماضية وعالجت آراءهم بالشرح أو النقد أو التعليق فاني أرى الآن انه كان يكون أروح لي لو اني قصدت إلي واحد منهم فاقصرت عليه بالدرس . وذلك لأن الأسهاب في شرح فترة قصيرة هي حياة الأديب ، يتناول من الدقائق المفيدة والتفاصيل الطريفة ، ما يغنط الكاتب إلى التجاوز عنه حين يعمد إلى موكب كامل من الأدباء يصف أفراداه مع الايجاز الذي قد يكون مخلا في بعض الأحيان . ولكن

القارىء العربى الذى يجهل الأدب الانجليزى يؤثر رؤية الموكب على رؤية الفرد وعنده أن الامام بطبقة الأدباء المجددين خير من الاحاطة بواحد منهم . وهو على حق فى هذا الرأي . وذلك لان كلامهم قد انتحى ناحية فى التجديد لم ينتحها غيره . والاسهاب فى شرح الادب لواحد منهم لا يقوم مقام التلخيص لكل وعلى هذا الاعتبار يمكننى ان أقول ان هذا الكتاب هو فى حقيقته مقالة مسببة أو هو المقدمة لدرس التجديد فى انجلترا . وأملى ان أوفق فى القريب إلى درس واحد من هؤلاء المجددين لعله برنارد شو . فيكون هذا الكتاب الراهن بمثابة الفرش للصورة يهيه للقارىء البيئة التاريخية والثقافية التى تكون منها هذا الاديب العظيم

فليقرأ القارىء اذن هذا الكتاب على اعتبار أنه مقدمة لدرس التجديد الادبى فى انجلترا . وعليه ان يلتفت إلى التفاعل المستمر بين الادب والاجتماع وان يقابل بين هذه الحال وبين ما نحن عليه فى مصر وخاصة عند أدبائنا التقليديين الذين قطعوا بين الحياة الراهنة وبين ما يزالونه من أدب قديم فى الاسلوب والغاية والموضوع

سلامة موسى

obeykandi.com

التجديد في الادب الانجليزي

اذا ذكر الانجليزي عبارة « العصر الفكتوري » غنى بذلك نحو سبعين سنة قضتها انجلترا في خمول يشمل الاخلاق والادب بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩٠٠ وهي المدة التي تولت فيها الحكم الملكة فكتوريا

وقد كان هذا العصر عصر تجديد بل ثورة في العلوم . ففيه ظهر داروين وقلب البيولوجية رأساً على عقب واستحالت نظرياته إلى مذاهب تشبه المذاهب السياسية من حيث ابتعاث الحماسة أو المقت . وفيه ظهر هربرت سبنسر الذي قضى حياة طويلة يدافع عن مادية صريحة . ومن الناس من يطلق عليه وصف الفيلسوف مع انه أعدى أعداء الفلسفة إذ هو عالم لا يؤمن إلا بالعلم . وظهرت في هذا العصر نزعات علمية كثيرة نقلت الطب من الكهانة والسحر إلى التجربة ونقلت التربية من حفظ اللغتين الاغريقية واللاتينية إلى درس الطبيعات والكيمياء

وكانت المدنية الانجليزية في هذا العصر الفكتوري تنتقل من الزراعة إلى الصناعة ، ومعايش الناس تتجدد من حيث اختلاف الحرفة ولكنها تبقى مع ذلك جامدة من حيث العادات الاجتماعية

وهذا الجمود شمل الحياة الاجتماعية . وإلى الآن لا يزال الانجليزي يستعمل لفظة هي « المسز جرندي » التي تدلنا على هذا الجمود . فان هذه المسز أو السيدة هي ربة البيت الانجليزية التي كانت تحم على أعضاء منزلها الوقار والاحتشام بل التزمت فلم تكن تسمح للفتاة بالخروج وحدها أو المزاح مع الشبان أو اتخاذ الملابس المختصرة أو ارتياء الآراء الجديدة . وكان البيت الانجليزي مدة ذلك العصر مثالا للجمود بل الكمود لوجود هذه السيدة المحترمة التي كانت تعتقد انها تصون الاخلاق بتزمتها

والادب بطبيعته يسار الحياة الاجتماعية فان الاديب يكتب مقالته ، أو يؤلف قصته ، وهو يفرض جمهوراً يسمعه . فاذا هو ارتأى رأياً ينبوع عن ذوق هذا الجمهور أو عقائده أو أخلاقه أكنه في نفسه وكظمه وأبدى غيره مما يرضى هذا الجمهور . وقد يقال هنا أن حرية الرأي تقول بغير ذلك . ولكن يجب على القارئ أن يعرف ان الجمهور يحد من حرية الرأي مثلاً بمد منها القوانين سواء . ولذلك كان جميع الادباء في العصر الفكتوري يحترمون آراء المسز جرندي ولا يخالفونها إلا في تواضع وذلة . ولهذا السبب اتجه الادب الانجليزي طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام . فنحن إذا قرأنا ما كولى المؤرخ راعنا أسلوبه وعبارته الملحنة المنعمة ولكننا نخرج منه بلا شيء من حيث التفكير . وكذلك الحال مع سكوت وثاكرى القصصيين

وقد يستطيع القارئ أن يذكر الشاعرين شلى ويرون وان يصفهما بالثورة على التقاليد والعرف والنزوع إلى حرية الاغريق . وهذا صحيح . ولكنهما عاشا وماتا وكأنيهما غريبان عن انجلترا تقرأهما فئة صغيرة وتقتنى مؤلفاتهما وتندسها في زوايا الحجر حتى لا تراها عين هذه السيدة المحترمة المسز جرندي واستمر الجلود شاملاً للاجتماع والادب إلى حوالى سنة ١٨٨٠ حين أخذت تتراكم أسباب الثورة أو التجديد وتستمد قوتها من العلوم الجديدة . فهذه الصناعة مثلاً تبعت كارل ماركس على تأليف كتابه في ضرورة الاشتراكية مع شروح وافية مؤلمة في فساد الهيئة الاجتماعية الحاضرة . وهذا العلم الجديد « البيولوجية » يبعث إبسن الشاعر النرويجي على تأليف درامة تصف سلطان الوراثة وكيف يرث الابناء نقائص آبائهم في الجسم والغريزة . ثم هذه المادية الجديدة تبعت الشاعر سونبرن على ان يؤلف القصائد في الانتقاض على العقائد . ثم نرى دعوة الى الجمال يدعو اليها أوسكار وايلد من ناحية ، وولتر باتير من ناحية أخرى مع اختلاف بين الاثنين في الوثن الجميل الذى يتعبد له كل منهما . فان الاول يحب باريس الحديثة ويتغنى بليلاتها ويعرف للترف المادى قيمته في

الجسم الرائع والمائدة المطهنة والحديث البارع ولذة اللحم . والثاني يجب أنينا القديمة ويذكر آلهتها وفلاسفتها ويساوى بين الاثنين ويرى في تمثال الرب افلون أنموذجا فذاً للجمال الانساني كما يرى في شبان الاغريق نماذج أخرى لجمال الآلهة وكل هذا يحدث على الرغم من الجمهور حتى ان أوسكار وايلد قد قضى سنتين في السجن لانه عمل بما قال ونزل بالواقع الي ما كان يتخيله وجعل من الادب حياة يعيشها على نحو تلك الحياة التي كان يعيشها أبو نواس وهي لا تختلف من أدبه كما لا تختلف خياله من واقعه وقصيدته من معيشته

ولكن ما نكاد نقترب من سنة ١٩٠٠ حتى نجد الانفجار . ولهذا الانفجار أسباب خارجية وأخرى داخلية وقد ذكرنا هذه الاسباب الداخلية وهي تنحصر في التقدم العالمي الذي عكس أشعته على الادب ، والتقدم الصناعي الذي عكس أشعته على التفكير الاجتماعي . وكانت إنجلترا طول مدة القرن التاسع عشر في مقدمة الامم في العلم والصناعة فتأثر الادب من هاتين الناحيتين يرجع اليها وحدها

ولكن كان في أوروبا مؤثرات أخرى . ومن أغرب ما يذكرون هنا ان أعظم هذه المؤثرات وهو الادب الروسى لم يترك أثراً صغيراً أو كبيراً في إنجلترا . وأدباء الانجليز جميعهم يعترفون بسمو هذا الادب وانه الادب الانساني الرائع الذي لم يخلق مثله في العالم ومع ذلك ليس فيهم واحد — ولا واحد — قد تأثر به . ولست أستطيع ان أعزو ذلك إلا الى ان البيئة الانجليزية تختلف جد الاختلاف عن البيئة الروسية

أما سائر المؤثرات فيرجع بعضها الى إبسن الشاعر النرويجى الذي يمكن ان يقال انه جدد الدراما الانجليزية عن سبيل برنارد شو . وقد أنكر برنارد شو انه مدين لهذا الكاتب النرويجى ولكن الذى يقرأ الاثنين لا يستطيع إلا الاعتراف بأن الثانى مدين للأول في فنه وآرائه وثورته على العرف ودعوته إلى استقلال الشخصية ودعوة المرأة الى الرجولة ، ولا أقول الاسترجال . ويقول

برنارد شو انه تلميذ لأديب انجليزي هو صموئيل بطر ولا شك في أنه صادق في ادعاء هذه التلمذة ولكنها ليست كل شيء في تلمذته . فانه مزيج من داروين و نيتشه و إبسن و بيرون و برجسون

ومن المؤثرات الحديثة القوية في الأدب الانجليزي نجد لنظرية « التحليل النفسي » والعقل الباطن أكبر الأثر . وهذا الأثر أكبر وأعظم في الشبان الجدد ويمكن أن نقسم الأدب الجديد أو المجدد الى ثلاثة أقسام هي ثلاثة أطوار: طور الرائد ثم طور المجددين وأخيراً طور التأثيرين وهذه التسمية نريد بها التوصل الى فهم التجديد ولا نريد بها التعمين .

ففي الطور الاول نجد الرائد و هم سونبرن الشاعر وهو انما يثور على العقائد دون العرف الاجتماعي . ثم صموئيل بطر أستاذ شو . وهو نائر على العرف الاجتماعي وكلاهما يدعو الى احترام الشخصية واستقلال الفرد استقلالاً دينياً اجتماعياً . ثم نجد أنه يعاصرها أوسكار وايلد وولتر باتير وكلاهما يدعو الى الجمال دون الاخلاق الشائنة مع فرق سبق أن بيناه . ثم ندخل بعد ذلك في طور المجددين . فنجد برنارد شو في المقدمة لا يقنع بالانتفاض على الدين بل هو يثور أيضاً على الاجتماع والعرف وهو ليس هداماً يرضى بالهدم ويسكت عنده ولكنه يبنى فيدعو الى الاشتراكية واستقلال الشخصية ويرسم الطرق لاستخراج البرمان وكأنه يضع مقايضة ويقوم بعملية حسابية عن توليد خروف أبيض من نماج سود . وهو كافر يمتقد في نفسه أنه مؤمن ومادى يظن انه روجي وعالم يمارس الادب ويعلن احتقاره له وكاهن من كهنة الانسانية الجديدة وجوهرة من جواهر الادب الحديث

ومن المجددين أيضاً ولز . وهو يشبه برنارد شو من وجوه كثيرة من حيث النظر العالمي للادب وان كان هو من حيث المزاج أديب بينما شو عالم . وولز الآن قوة من قوى الخير في العالم وهو أكبر أثراً من عصبة الامم في الدعوة الى الاخاء وقد رضى بالتضحية بالنفن من أجل الوعظ فانه يعظ ويعظ ولا يفتأ

يعظ ويبين للناس كيف يتوقون الحروب والأمراض ويدلهم على وسائل الخدمة الإنسانية . وقد حاول أن يؤمن وأخلص في المحاولة إلا أنه فشل ولكنه مع ذلك لا يدعو إلى الكفر أو الالحاد

ثم ندخل في طور التأثيرين وهم الشباب الجدد الذين كابدوا من الحرب ويلاتها وعرفوا منها السفالة العميقة التي يمكن أن تهوى إليها الإنسانية على الرغم من طلائها النظيف . وجميع هؤلاء التأثيرين قد درسوا التحليل النفسي والعقل الباطن وخرجوا من هذا الدرس بجواهر تحيط بها أكوام من « الزبالة » . وقد خالفوا أوضاع القصة ورفضوا حتى عرف الكتابة بحيث أن الذي لم يتسلم مفتاحهم لا يكاد يفهم ما يكتبونه . ومفتاحهم هو « العقل الباطن » وما في داخل رؤوسنا من حشرات وأفاع . ولكنهم مع ذلك يعرفون أنه إلى جنب هذه الحشرات والافاعي طواويس زاهية وفراش جميل . ثم إلى جنب هذا وذاك نزوع غامض في النفس الإنسانية نحو الكمال . وأبطال هذا الطور هم لورنس وهو كسلي وجويس

والمستقبل هؤلاء . على الرغم مما فيهم من ضعف وتردد بل من خلط واضطراب لأنهم قد خطوا على حقائق النفس الإنسانية وكشفوها وأبانوا عنها عارية ولم يسترُوا منها قبحاً أو حسناً . فهم يتسابقون في ميدان جديد جرى فيه ولز نفسه شوطاً ثم كف عنه

وهذا كلام كله مختصر يحتاج إلى اسهاب في الشرح

جمود العصر الفكتورى

كان العصر الفكتورى أى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩٠٠ يوم
بالجمود فى الأدب باعتبار الأدب فنا من الفنون الجميلة
وقد سبق هذا العصر شاعران كان ينتظر منهما أن يبعثا نهضة جديدة فى
الأدب الانجليزى هما شلى الذي مات سنة ١٨٢٢ وبيرون الذي مات سنة ١٨٢٤
ولكنهما ماتا وكأنهما لم يعيشا . وإذا كان أحد يقرأهما هذه الأيام فذلك يرجع
إلى النهضة الحديثة التى ابتدأت حوالى سنة ١٨٩٠
بدأ شلى حياته الثائرة بتأليف كتاب فى «ضرورة الاتحاد» وطرد من الجامعة
لهذا السبب . ثم رحل إلى دوبلين عاصمة إرلندا وهناك دعا إلى استقلال إرلندا
ومات فى سن الثلاثين

أما بيرون فقد رحل إلى بلاد الاغريق يؤلف القصائد فى الدفاع عن حريتها
وقصائده هى أناشيد الحرية يقرأها القارئ الى الآن بل يتغنى بها

ولكن شلى وبيرون كما قلنا ماتا دون أن يتركا لها خلفاً للعصر الفكتورى
يدعو الى الحرية . ومضى هذا العصر على طوله كأنه عصر الظلام يقرأ فيه الناس
تاريخ ما كولى فيعجبون بأنفسهم وامبراطوريتهم ومجدهم وعظمة برلمانهم وهذا
الما كولى يمكن القارئ الى الآن ان يعرف حقيقة واحدة عنه تكفيه للحكم عليه .
فقد ذكر عن الهندى انه لا يقبل الرقى وكاد يقول انه جبل من طينة أخرى غير
الطينة التى جبل منها الانجليزى وهذا هو رأى الاستعماري الذى ما يزال يقول
به كبلنج الشاعر . والقارئ المصرى يعرف الان انه ليس كبلنج ولا ما كولى

الانجليزيان جديرين بأن يحل أحدهما سيور حذاء غاندى الهندي

فالام يعزى هذا الجمود فى العصر الفكتورى ؟

يعزى الى شيئين أولهما الروح المادية التى انتشرت فيه بتدفق الثروة على

الانجليز ونجاحهم في الاستعمار . والثاني الروح الدينية التي ورثها الانجليز عن النهضة الطهرية

ففي العصر الفكتوري ازداد استعمال الآلات في المصانع وكادت انجلترا تختص بالصناعات الآلية فكانت تغزل وتنسج وتصنع المعادن وتصدر مصنوعات الى أوروبا والقارات الأربع الأخرى . وانجلترا هي التي شرعت للعالم سبيل الصناعة الآلية باختراعها الآلات البخارية والاعتماد على الفحم وقد أثرت أثراء فاحشاً وأخذ أسطوطها يفتح لها الأسواق بالاستعمار . فكانت طول العصر الفكتوري في نهضة اقتصادية بعثت فيها الروح المادية والأكبار من شأن الترف والنجاح المالي على نحو ما نرى الآن في الولايات المتحدة الأمريكية التي تقوم بالدور الثاني للنهضة الاقتصادية الآلية . وهذا النظر المادي المالي هو أقوى العوامل لتثبيط الحركات الأدبية (١)

أما العامل الثاني فهو النهضة الدينية التي فشت في انجلترا واتخذت شكلاً خاصاً يقرب من النزعة الوهابية في جزيرة العرب نعى بها تلك الحركة الطهرية (بيوريتان) التي تدعو الى التقشف وكرهه الفنون والابتعاد عن الملامى . وهذه النهضة هي التي اخترعت الملابس السود الكافية للرجال وهي التي ماز لنا نرى أثرها حتى في رجل مجدد مثل برناردشو حين يمتنع عن تناول طعام اللحم أو الخمر وحين يميل الى الزهد . ولا يمكن الدراماة أو القصة أن تنجح أمام هذه الروح التي لا تجيز للمؤلف ان يترخص مثلاً في رواية الحب والغرام

ولنشأ من هذين العاملين أى مادية النهضة الاقتصادية وروح التقشف الديني نزوع في الأمة الى لزوم العرف وكرهه البدع . وأصبح القصصى لكي يتجنب النقد يعتمد الى خياله ويبتعد من الواقع ما استطاع ذلك . وحركة التجديد التي قامت عقب العصر الفكتوري هي في لبابها ثورة على هذا الادب الخيالى الفكتوري السخيف الذي لا ينطبق على حقائق الحياة

وقد رأينا كيف ان الروح المادية قد أتلقت ذهن المؤرخ ما كولى فجعلته

ينسى انسانيته ويحتقر الهنود ويبعثه زهو الثروة والنجاح المالى والتوسع
الامبراطورى على ان يؤلف تاريخاً للانجليز يرفعهم فيه الى مقام الآلهة ويزهى
فيه بعظمتهم

والى جانب ماكولى نجد رجلاً آخر يغمر تاريخ الملكة فكتوريا بشخصيته
هو كارليل الذى مات سنة ١٨٨١ . فان الروح الدينية أتلفت ذهنه كما أتلفت
الروح المادية ذهن ماكولى فاستحال واعظاً بعد ان كان يرجى منه ان يكون
أديباً . وخاصة اذا اعتبرناه وقد بدأ حياته بتأليف كتاب عن الثورة الفرنسية
(١٨٨٩) وكان الطراز الاعلى للأدب عنده ذلك العظيم الالماني جوتيه . فاذا
كان درس الثورة الفرنسية ورجال الذهن الذين هياؤا لها ، ثم التلمذ لجوتيه
لا يخرج للناس أديباً عظيماً فلا بد ان يكون هناك حاجز ضيق لا تستطيع بصيرته
ان تنفذ منه . ولنضرب لذلك مثلاً مقابلة بين جوتيه وكارليل فى موضوع معين
عالجه كل منهما

فقد عالج جوتيه موضوع الواجب وكيف يجب ان نعمل فى الدنيا فلا نترك
ساعة من حياتنا حتى نملأها بعمل مفيد . ولما مات ابنه حزن عليه ولكنه لم
يجزع ولم يستسلم للكود والهمود بل تقص عن نفسه الحزن وهب الى العمل .
ولكن ماذا كان يقصد اليه جوتيه من الواجب وكراهة التعطل ؟

كان يقصد من ذلك الى ان تزداد شخصيته عرفانا وقوة فيزداد بذلك حرية
واستمتاعا . وكان يرى فى الجهل تقييداً فكان يدرس العلوم والآداب بروح
الطالب . وكان يرى فى الدعة والانكفاف تضيقاً لشخصيته فكان يختبر كل
شئ ولا يبالى وهو فى الثمانين ان يعشق ولا يمنعه درسه من ان يقوم بأعمال
ادارية وسياسية . وقد اغدغمت ثقافته فى شخصه فكان يقبل على الدنيا ويلتذ
الحياة ويستغل ما كسب من اختبارات ومعارف لكي تقوى شخصيته وكأنه
يرى نفسه مركزاً أو محوراً للكون . فنحن يجب علينا فى رأي جوتيه ان نكبر من

شأن العمل ونقبل عليه ونؤدى واجبا فيه لكى نستكمل به شخصيتنا ونزيد استمتاعا بالدنيا

ولكن كارليل يدعو الى الواجب لغاية أخرى انحدرت اليه من المبادئ الطهرية التى شاعت فى إنجلترا وصبغتها بالروح الدينية . فقوى يقول :
 « نحن هنا على الارض جنود نحارب فى قطر غريب ولنا ندرى الغاية المقصودة من هذه الحرب ولنا فى حاجة لان ندرىها وانما علينا ان نؤدى ما يجب تأديته وعلينا ان نؤديه كالجنود بالطاعة والشجاعة وطرب البطولة »
 والفرق واضح بين الاثنين . جوتيه أديب وكارليل واعظ . وقد تستطيع ان تفضل كارليل على جوتيه وأنت بذلك تفضل النهضة الدينية التقشفية على النهضة الادبية الاستمتاعية كما يمكنك ان تقول ان الوهايين فى كراهم للفنون والترف والاستمتاع والالتذاذ خير من الباريسيين الذين لا يبالون ما يفعلون ولا يحترمون التقاليد . وأنت حري فى هذا النظر . ولكن يبقى بعد ذلك ان تعترف ان فى باريس فنونا جميلة وأدبا رائعا ولكن ليس فى الرياض عاصمة نجد شىء من ذلك

والطهريون فى إنجلترا هم وهايو الديانة المسيحية وقد صبغوا الادب الانجليزى بصبغة التقشف فى العصر الفكتورى

الرجعيوه التأثروه

ساد الوسط الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فى انجلترا روح مادى يدفع بالناس إلى التكالب على جمع المال . وقد بعث هذا الروح انتشار الآلات وقيامها مقام الأيدى فسهل بذلك جمع المال بتراكم الأرباح وقيام المصنع الكبير الآلى مقام عشرات بل مئات المصانع الصغيرة

فالى القرن التاسع عشر كانت الصناعات لا تزال فى أيدي الصانعين كل صانع يستقل بمصنعه فهو نفسه عامل وصانع . فلم يكن هنالك طبقة كبيرة من العمال لا تملك سوى الأجور وطبقة أخرى صغيرة من المولدين تملك المصانع الضخمة . وكانت الصناعات أشبه الأشياء أو أقرب الأشياء إلى الفنون كما هو الحال إلى الآن فى النجارة . فالنجار — المصرى على الأقل — هو فنان كما هو هو صانع يتأنق ويلتذ عمله وينشد منه جمالا ومصلحة . ولكن العامل فى المصنع الآلى الكبير الذى يضم بين جدرانها نحو مائة أو ألف عامل لا يمكنه ان يمزج بين الفن والصناعة لأنه يختص بجزء من العمل كأن يقنع بصنع الكوتشوك من الاتومبيل أو بدهنه بالطلاء أو فرشته وتنجيد مقاعده أو نحو ذلك . فاذا قابلنا بينه وبين النجار الفينا هذا الثانى خالقا مبتكر ويخرج من بين يديه شيئا تاما وله مادة أصلية فما يزال به حتى يخرجها خلقا سويا قد انطبع بشخصيته . فالعامل هنا فنان يحب عمله ويلتذ به وهو يرقى به . ولكن العامل فى المصنع الكبير لا يصنع سوى جزء صغير من السلعة التى يقتسم صنعها العمال جميعا . فهو عامل لا أقل ولا أكثر وهو أشبه بالآلة منه بالإنسان

ولم تكن الصناعة اليدوية تؤذن بتراكم المال فى أيدى قليلة كما هي الحال الآن فى الصناعة الآلية التى جمعت رأس مال الصناعة فى طبقة من المولدين وجعلت جميع الصناع عمالا مأجورين

وكان القرن التاسع عشر أو العصر الفكتوري في إنجلترا قرن الانتقال من الصناعات اليدوية إلى الصناعات الآلية . وهذا الانتقال نجده الآن على أشده يوشك ان يتم ويبلغ أوجه في الولايات المتحدة التي يصنع أحد مصانعها نحو عشرة آلاف أتومبيل في اليوم . وهذه الولايات المتحدة هي الرائدة الآن للعالم كله في هذا الاتجاه وفي إيجاد حضارة صناعية تمحو ما قبلها من حضارات زراعية

وفي كل انقلاب نجد فريقين فريق الآسفين المتشبثين بالماضي ونحن نسميهم رجعيين أو جامدين إذا كنا نكرههم . وفريق الراغبين في الحال الجديدة الداعين إليها ونحن نسميهم المجددين إذا كنا نحبههم . أما إذا كنا نكرههم فأننا عادة نتهمهم بالاحاد والاباحية والمادية

وهذا هو ماوقع في إنجلترا في أواخر القرن الماضي . فقد ظهر أدباء يدعون إلى التجديد وآخرون يدعون إلى الاستمسك بالقديم . ونحن هنا نقصر الكلام على اثنين من عظماء الرجعية في إنجلترا هما جون روسكين (١٨١٩ — ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ — ١٨٩٦)

وكلاهما أفاد بثورته على روح التجديد في القرن التاسع عشر لانه أوضح اضراراً كادت تخفى على الناس من حيث انتشار الروح المادى وتغلب الصناعة على الفن وإيثار السرعة على الاتقان . وقد أخذ كل منهما في دعوة الناس إلى إيثار المصنوعات اليدوية على المصنوعات الآلية وكراهة العلم وتقبيح النهضة الاوربية العلمية وامتداح القرون الوسطى . وأخلص كل منهما لدعوته اخلاصاً عظيماً هو السبب الاساسى للفائدة التي جناها وما زال يجنيها الناس من مؤلفاتهما بل من حياتيهما

لما بلغ روسكين شبابه وجد في لندن جماعة تدعى « أخوية الداعين إلى ما قبل روفائيل » وهم جماعة من الرسامين عمدوا إلى النهضة الاوربية فقبحوها وطعنوا في العلم ودعوا الفنانين إلى إيثار الروح الدينى للقرون الوسطى . ولم

يأتوا بطائل فتشتوا ولكن دعوتهم كانت بذرة لقح بها ذهن روسكين وقد لا يكون بين كتاب الانجليز من أحسن الكتابة بهذه اللغة مثل هذا الرجعي العظيم روسكين . فقد جمع ما في اللغة من رقة وحلاوة وجمال فخواها في أسلوبه . وما تقول في رجل يصفه عدو له بالجنون ثم يعترف له بأنه يمكنه ان يصف السحاب في مائة صفحة يقرأها القارئ فلا يسأمها بل يطلب المزيد ؟ ترك روسكين بلاده ورحل إلى البندقية مدينة القرون الوسطى وهناك ألف كتابه « أحجار البندقية » الذي يقول فيه :

« ان البناء القوطى فى البندقية هو ثمرة الايمان الطاهر والفضيلة العائلية - وأيضاً : « ان البناء الحسن هو التعبير الظاهر عن الحال السليمة للمزاج وعن الشعور الاخلاقى »

ثم يمضى بعد ذلك فيشرح جميع الاعمال الفنية مدة النهضة بأنها ثمرة الغدر وفساد الاسرة وسقوط الاخلاق

وهذا كله هراء بليغ . فان البناء أبعد الاشياء عن الدلالة على الاخلاق . وهذه بنايات المالك فى القاهرة هى من الفخامة والجمال بحيث تناقض الحياة الاجرامية التى عاشها كثير من هؤلاء . وتاريخ البندقية التى ما تزال قصورها القديمة قائمة هو تاريخ الدسائس الدموية والسفالات العظيمة التى ارتكبها أصحاب هذه القصور . وانما كره روسكين النهضة لأنها كانت الاصل فى الروح العلمى الذى ساد أوروبا وأخذ مكان الروح الدينى . وكان رجلاً متديناً لا يطبق النزعات الجديدة التى تكتسح كل ما أمامها فلم يكن فى وسعه سوى السباب . وهو سباب أنيق يسمع له الناس لانه يتأق فى عبارته ثم يغضون لهذا التأنيق عن سخافاتة . فلقد بلغ به السخف ذات مرة أن علل الكوارث التى تقع فيها بريطانيا بسخط الله عليها

ولكن روسكين كان مخلصاً فى دعايته يحض الناس على التمسك بالدين وكرامة المصنوعات الآلية والرجوع إلى الصناعة اليدوية والابتعاد من الروح المادى .

ورث ١٥٠٠٠٠٠ جنيه من والديه فحرمها على نفسه ولم ينفق منها مليماً ووقفها على الاعمال الخيرية وعاش قانعاً بما يجنيه من قلمه . واتجه نحو الاشتراكية فأسس كليات العمال في الجامعات ورفع من شأن العمل حتى كان يأخذ الطلبة من أبناء الاغنياء فيؤلف منهم فرقة لتعبيد الطرق

ومهما قلنا في روسكين وانتقصنا من قيمة الحملة التي حملها على الروح الحديث فاننا يجب أن نعترف بأنه بحسن التفكير حين ينتقص لنا من شأن السرعة . وانا عند ما تركب القطار نستفيد سرعة فقط بينما نحرم فوائد السفر والتفرج التي نجنيها من الجواد أو من العربة التي تجرها الجياد . فهنا شيء للتفكير

اما وليم موريس الرجعي العظيم الآخر فان جهاده أبقي وأثره أعظم . فانه لقح الصناعات بالفنون وكان هو وروسكين سواء في كراهة الآلات . ولكنه كان يمتاز على روسكين بأنه يرى الواقع ويسلم به ويقنع باصلاحه . فقد كان في ذات نفسه يحب خط اليد ويؤثره على خط الطبع ولكنه كان يرى آلة الطباعة شيئاً واقعاً لا فرار منه ، فكان يقنع بأن يكتب حروفا جميلة يسكبها ويقدمها لآلات الطبع فتتحسن الطباعة . وكان يرى أن الروح المادى يطغى فيجعل البنائين يبنون المنازل من أسخف المواد ويزينونها بالبهرج فصار هو نفسه يصنع الاثاث والف شركة لهذه الغاية لانزال حية الى الآن غايتها الجمع بين الفن والصناعة أو الجمال والتجارة . ولهذا الرجعي أثره الجميل في صناعة الآنية والسجاجيد وورق الجدران

وحارب الروح المادى بأن صار اشتراكياً يؤلف بل يبيع الكتب والرسائل الاشتراكية على قوارع الطرق

والآلة مع كل ذلك منتصرة تطغى علينا وتسوقنا بل تدفعنا دفعاً عنيفاً لا ننجع في وقفه مثل روسكين أو موريس . ولكنهما نجحا في تنبيهنا الى وجوب العناية بالفن وتلقيح الصناعات الآلية به

بواعث التجديد

تبحث على التجديد بواعث كثيرة . ويصيب التجديد ميادين النشاط الانساني جميعها سواء أكانت ثقافية أم حضارية
فقد يهتدى الذهن البشرى الى فكرة جديدة تكشف عن الدلالة لطائفة من المعارف بحيث تجعل المعرفة الميثة ثقافة . كفكرة التطور مثلاً اهتدى اليها داروين . فكانت وما تزال نظاماً انتظمت به المعارف البيولوجية فمن هنا يعد داروين مجدداً في البيولوجية كما يعد فرود مجدداً في السيكولوجية لأنه اهتدى إلى فكرة العقل الباطن . أو كما يعد ولسون مجدداً في السياسة لأنه اهتدى الى فكرة حصة الامم

ويصيب التجديد الحضارة كما يصيب الثقافة . فحياتنا الحضارية في مصر قد تجددت في نصف القرن الماضي بأكثر مما تجددت ثقافتنا . وذلك لاننا اصطدمننا بظروف جديدة اضطررتنا الى اتخاذ الحضارة الغربية والتسليم بها . فنحن ننقل بالقطار والأتومبيل دون الجمل أو الحمار . ونحن تؤسس المؤسسات في التعليم والقضاء والبريد والادارة على غرار الانظمة الاوربية دون الانظمة التي ورثناها من العرب أو من الشرق . ونحن في كل ذلك مجددون لا يكاد يوجد بيننا رجعي يقول بأفضلية الجمل على القطار أو خطة الالتزام القديمة في جباية الضرائب على الخطة الحاضرة في فرض الضرائب

وأعظم ما يبعث على التجديد هو تبدل الوسط . فاذا فرضنا مثلاً ان جزيرة العرب قد حدث لها تبدل فجائي فانتقلت من اليبس والجفاف إلى البلل والمطر واستحالت صحراؤها القاحلة أرضاً زراعية فاننا ننتظر من العرب عندئذ أن يقلعوا من البداوة والرحلة ويأخذوا في أساليب الزراعة والاقامة . ومن يفعل منهم ذلك يعد مجدداً ومن يجمد ويلزم البداوة يعد رجعياً لا يستجيب للوسط الجديد

فالثقافة التجديدية في مثل هذه الحال يجب أن تدعو إلى الاخذ بالزراعة وتعلم أساليبها والنزول علي أخلاقها وهجران البداوة والاقلاع عما بقى منها في المعيشة والاخلاق

وقد حدث في القرن التاسع عشر في انجلترا ما يشبه هذا الانتقال . فان الحضارة الزراعية أخذت تتراجع وتتقلص بينما الحضارة الصناعية كانت تأخذ في الغارة عليها . وهذه الحضارة الصناعية هي حضارة الآلات وما تستتبع من تبدل في المعيشة والاخلاق . وهذا الانتقال كان يدق على أفهام الناس لا عامتهم فقط بل خاصتهم أيضاً . وكان هناك من يفهمونه ويدركون مغزاه ويقاومونه مثل جون روسكين ووليم موريس إذ أن كليهما دعا إلى ترك الآلات والرجوع بالناس الى العصور الوسطى والقناعة بالعمل اليدوى

وقد قلنا ان هذه الحضارة الصناعية كانت تغير على الحضارة الزراعية مدة القرن التاسع عشر . وهي ما تزال إلى الآن في هذه الغارة لما تستم لنفسها النصر . فالدعوة التجديدية القائمة الآن في انجلترا كما نفهمها من مؤلفات برنارد شو أو ه . ج . ولز . أو كما نراها أحياناً علي أبلغها في مؤلفات برتراند روسل تدعو إلى ان نستبدل من ثقافتنا بمثل ما استبدلنا من حضارتنا . وهؤلاء الكتاب وكثير غيرهم قد جعلوا من أدبهم وسيلة لان نعود الى معيشتنا وأخلاقنا فننقح فيها بما يوافق العصر الجديد عصر العلم والآلات والمادية

ولننظر الآن في الوسط الزراعى وما يقتضيه . ثم نعود الى الوسط الصناعى فنبحث وجوه الفرق بينهما وهي الوجوه التى أخذ أدباء انجلترا المجددون في شرحها وحث الانجليز على اعتمادها دون سواها

فقد كان الناس الى القرن التاسع عشر يعيشون عل مبادئ الحضارة الزراعية وكانت الصناعات يدوية العامل فيها أشبه بالمالك منه بالاجير . والمدن صغيرة كأنها القرى والانتقال بطيء لايساعد علي انتشار المصنوعات وتراكم رءوس الاموال في بقع معينة هي المصانع الحديثة والمدن الكبيرة . ولمثل هذه الحضارة أخلاق تلازمها هي الاخلاق التى ما زلنا نراها عندنا مثلاً حيث لايجوز للمرأة

أن تستقل وتعمل لحسابها الخاص وحيث الايمان بالقضاء والقدر على أقواه
وحيث الديمقراطية اسم بلا مسمى وحيث نرى العقيدة والتقاليد تأخذ مكان
الرأى والاستنباط والنزول على العرف مكان الاستقلال والافراد . وحيث تحترم
الرابطه العائليه وتوضع فوق كل اعتبار وحيث للدين الحرمة الاولى فى تفكير
المفكرين

كانت هذه حال انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر . ولكن رويداً رويداً
أخذت الصناعة تطارد الزراعة ، والمدن تجذب اليها السكان فيهجرون القرى
والريف . والصناعات اليدوية تموت ويحتشد العمال فى المصانع الكبيرة . وأخلاقنا
هى ثمرة الوسط الذى نعيش فيه وهى تبع للاحوال الاقتصادية التى تلابسنا .
ومن هنا فشا النزاع بين الاخلاق القديمة وبين الوسط الجديد . ومن هنا ظهر
التصادم بين المحافظين الذين كانوا يرغبون فى الاخلاق القديمة فيطلبون من المرأة
أن تكون زوجة فقط ومن الاولاد طاعة الآباء والارتباط بهم ومن الفقراء القناعة
بالفقر ومن المفكرين النزول على العقائد الدينية والتسليم ، وبين المجددين الذين
كانوا يرغبون فى أخلاق جديدة توافق البيئة الصناعية الجديدة . وهى أخلاق
تدعو المرأة الى أن تكون لها شخصية مستقلة تعيش لنفسها أولاً فترقى وتستمتع
ثم اذا أرادت بعد ذلك فلتكن لزوجها وأولادها وأمنها كما تدعو العامل أن
يواجه الوسط الصناعى الجديد بنظام جديد يحقق له الاشتراك فى الحكم
والانتاج هو النظام الاشتراكى بل كما تدعو المفكرين الى النزول على مبادئ
العلم والتسليم بنظرياته دون التسليم بالعقائد الموروثة أو العرف الاجتماعى . وإذن
احتاج المجددون الى المصارحة واظهار الجمهور البريطانى على عيوب العرف
والاخلاق القديمة والدعوة للاخلاق الجديدة . وأصبح الادب الانجليزى
اجتماعياً فى نزعه يحاول الاديب أن يبتكر عن سبيله القيم الجديدة للأخلاق
لكى يلائم بين البيئة الصناعية وبين معاش الناس

هذه هى المهمة التى أخذ الادباء الانجليز فى تأديتها للجمهور الانجليزى
وما زالوا فى سبيل هذه التأدية الى الآن

بعض الازجانب

وأثرهم فى الأدب الأنجلزى

تجمع بين الأقطار الأوربية جامعة من الحضارة والثقافة . وهى جامعة تربطها فى العموميات من المزاج والزعة إذ هى تشترك فى تراث الحضارة الرومانية والثقافة اللاتينية والاعريقية . وقد كانت جميعها أيام القرون الوسطى أشبه الاشياء بأمة واحدة تدين بالمسيحية وتكتب باللاتينية

ولكن لكل واحد من هذه الاقطار سماته الخاصة التى تميزه من الاقطار الأخرى فى حضارته وثقافته . فالنزعات السائدة الآن فى الادب الفرنسى تختلف جد الاختلاف عن النزعات السائدة فى الادب الأنجلزى . ويشهد هذا الاختلاف حتى لتسمع من بعض المصرين الذين تثقفوا بالادب الفرنسى ان الأنجلز لا يعرفون الادب . وهو انما يزعم ذلك لبعء الشقة واختلاف النكهة بين الادبين ولانه يجد فى أدب الأنجلز غير ما ألف وتعود فى أدب الفرنسيين . وليس هذا الاختلاف غريباً اذ هو يدل على الحيوية والاستقلال عند الامم الاوربية المختلفة من حيث أن كل أمة تنزع الى مثلبا العليا وتتخذ طرقا خاصة دون أن تأبه لما عند غيرها من هذه المثل والطرق

ولكن التفاعل لا ينقطع مع ذلك . فان الافكار تتلاقى وتتصارع ويحدث منها الامتزاج أو التناثر ، وقد تأثر الادب الأنجلزى لهذا السبب بالنزعات الادبية فى أوربا وان كان هو فى الارجح أقل الآداب الاوربية تأثراً بغيره . ونحن نجد فى الادب الجديد ثلاثة رجال لهم الأثر الأكبر فى التفكير عامة وفى الادب خاصة عند الأنجلز

وأول هؤلاء هو برغسون الفرنسى فان له آراء واضحة فى تجديد الافكار

الدينية والمذاهب الداروينية . فقد استطاع أن يؤثر في العالم الادبي وكانت طعنته هي الطعنة النجلاء التي يقف دونها المادى حائراً ان لم نقل مهزوما . وإيمان برنارد شو يكاد يكون كله منقولاً عن برغسون الذى يقول ان الحياة هي الخالقة وانها في صراع مستمر مع المادة وانها دائبة في التطور . واذا كان هناك شيء من التجديد الدينى الآن أو إذا كان ينتظر شيء منه في المستقبل فانه لن يعدو هذه الافكار البرغسونية البرمادية .

لأزى ثانياً هؤلاء الاجانب هو فرود النموسي . فقد انسلت نظرياته إلى الادب الانجليزي وأصبح « العقل الباطن » موضوع الادباء الجدد مثل لورنس وغيره . وعماد الادب الجديد الذي أعقب الحرب الكبرى هو التحليل للنفسى والعقل الباطن

أما ثالث هؤلاء فهو ابسن وهو بلا شك أعمقهم أثراً في الادب الانجليزي . وخاصة أدب الدراما . فان برنارد شو نشأ عليه وشدا منه وبنى لنفسه شهرته الاولى على طريقته . والدراما الانجليزية كلها تعترف لابسن بالاثر الكبير وتخطو في سبيله وتتخذ طريقته كلما استطاعت الى ذلك ولذلك يحسن بنا هنا ان نلم بطرف من حياته ومؤلفاته

كان ابسن كاتباً أسوجياً التحق بالتمثيل واحترف ادارة أحد المسارح ، ثم رحل عن بلاده الى ألمانيا حيث عاش سائر عمره يؤلف للمسرح الاسوجى فتترجم جميع مؤلفاته الى اللغات الحية في أوروبا فتبعث الحياة للمسرح وتجعل الدراما موضوع مناقشة بين الادباء بل بين الصحفيين والجمهور . وقد استطاع ابسن ان يجعل المسرح بدراماته ميداناً للأفكار والآراء لانه خص الدراما بغاية لم تكن تعرفها هي البحث الاجتماعى ونقد العادات والاخلاق والسياسة . وقد تناول مولير هذه الابحاث في فرنسا في القرن الثامن عشر . ولكن الذين خلفوه في فرنسا بل في أوروبا لم يستأنفوا عمله ولم يتجهوا نحو غايته فبقيت الدراما راكدة لا تنعش قد انقطعت عن الحياة أو كادت فلما جاء ابسن أعاد لها هذه الصلة وجعل المسرح ميداناً لنقد المعاش وببحث الاجتماع وكانت كل

درامة من دراماته « مسألة » اجتماعية تحتاج إلى الحل
والدرامة الابسية هي قصة عائلية تحتوي مشكلة وتنتهى بالرجاء أو باليأس
وغاية المؤلف في جميع دراماته أن يكون لا بطله « شخصية » فهم ينتحرون إذا
لم يستطيعوا تحقيق هذه الشخصية أو هم يتركون لهذه الغاية أهلهم وأولادهم
ولننظر في إحدى دراماته نظرة إلمام لكي نقف منها على الغاية التي ربي
اليها ابن . ففي « بيت عروس » نجد زوجة تحب زوجها حباً عميقاً ويبدو لها
من مسلك زوجها انه هو أيضاً يحبها . وقد دفعها هذا الحب الى أن ترتكب
جريمة الزور لكي تحصل على مبلغ من المال تقدمه لزوجها حتى يرحل عن
المدينة ويستطيع التعالج في جو أوفق . وتنوسيت هذه الجريمة التي لم يكن زوجها
يعرف عنها شيئاً . ولكن شخصاً آخر كان يعرف هذا السر المؤلم وقد استطاع
أن يهدد به هذه الزوجة

ويقف الزوج على السر فيغضب وهو في غضبه لا يذكر سوى نفسه والعار
الذي سيلحقه من فضح هذه الجريمة التي ارتكبتها زوجته . يذكر نفسه
وكرامته وشرفه ولا يذكر شيئاً من ذلك عن زوجته . ويريد ابن أن يقول
ان الزوجة هي « عروس » يلب بها الزوج وانها ليست رفيقته . وقد يكون
في تصويره بعض المبالغة . ولكن ليس هناك شك أيضاً في انه قد وضع للمتفرجين
مسألة تستحق المناقشة والحل وهي :

هل يجب على المرأة أن تكون انساناً أولاً أو يجب عليها قبل كل شيء
أن تكون زوجة وأماً؟

هذه هي المسألة التي يعمد ابن اليها فيحلها أو يوضحها في جرأة صارخة
موجعة . ومن الحوار التالي يتضح للقارئ موقف الزوجين بل موقف الحياة
العائلية بين القرنين : القرن التاسع عشر والقرن العشرين

وهذا الحوار يأتي عقب اكتشاف الزوج لجريمة الزور التي ارتكبتها
زوجته وغضبه لكرامته . ثم ارتياحه الى ان ذلك الشخص الذي هدهما

بالفضيحة قد أرسل خطاباً يرجع فيه عن عزمه على فضح هذه الجريمة . وعودة الزوج الى مصالحة زوجته . ولكن الزوجة تترك الغرفة وتعود وقد استعدت لترك المنزل

هلمر : ماهذا ؟

نورا : لقد مضى على زواجنا الآن ثماني سنوات . الا يخطر ببالك اننا نحن الاثنين زوجا وزوجة نتحدث لأول مرة حديثاً جدياً ؟

هلمر : ماذا تعنين بالحديث الجدى ؟

نورا : فى هذه السنوات الثمان بل قبل ذلك منذ تعارفنا لم تتبادل الحديث

عن موضوع جدى

هلمر : وهل كان من الممكن أن أخبرك كل يوم عن همومي التي لم تكوني تستطيعين مساعدتي على تحملها ؟

نورا : لا أتكلم عن هموم العمل إنما اعني اننا لم نقعد معاً مرة لكي نتحدث في جد ونصل الى الاصول والاعماق

هلمر : ولكن يا عزيزتي نورا ماذا كنت تفيدين من مثل هذا الحديث ؟

نورا : هذا اذن هو ما ظننت فيك . انك لم تستطع قط ان تفهمني . هلمر . لقد ظلمت كثيراً . ظلمني أبي أولاً ثم ظلمتني انت بعد

هلمر : ماتقولين ؟ نحن الاثنين ؟ نحن اللذان أحبناك أكثر من أي انسان ؟

نورا : (نهز رأسها) انت لم تحبني قط . وكل ما عندك انك يلذ لك أن

تظن انك تحبني

هلمر : ماهذا الذي أسمعه منك يا نورا ؟

نورا : هذا هو الحق أقوله لك . لما كنت ببيتنا عند أبي كان يخبرني عن آرائه في الاشياء فأأخذها منه . وكنت اذا اختلفت معه أنكرت أن لي رأياً آخر خشية أن يكره مني ان يكون لي رأى . وكان يدعوني بأسم العروس وكان يلعب معي كما كنت أنا ألعب وأنا طفلة مع عروسي . وعند ماجئت لكي أسكن في دارك —

هلمر : ما أغرب هذا التعبير الذى تعبرين به عن زواجنا
 نورا : أعنى انى أخذت من يدى أبى الى يدك . وانت شرعت ترتب كل
 شىء كما تهوى وكما يشاء ذوقك . وأخذت أنا عنك هذا الذوق أو ادعيت انى أهوى
 ما تهوى ولست أعرف أيهما فعلت أو لعلنى فعلت هذا مرة وذاك مرة أخرى .
 وعند ما أراجع نفسى أرانى كأنى قد عشت هنا كأنى امرأة مسكينة لأملك
 شيئاً . أجل لقد عشت أودى لك الحيل لأنك ترغب فى ذلك . لقد جنيت انت
 وابى علي واليكما أنما الاثنين اعزو هذه الحال وهى ان حياتى هباء لا قيمة لها
 هلمر : أى شىء أبعد عن العقل من هذا الكلام ؟ ما أقل شكرانك ؟ ألم
 تكونى سعيدة هنا ؟

نورا : لم أكن سعيدة وانما كنت مرحلة فقط وكنت انت تلاحظنى ولكن
 بيتنا لم يكن سوى ملعب ، فقد كنت لك زوجة تلعب بها كما كنت عند أبى
 طفلة يلعب بها وكما أصبح أطفالى لعبتى بعد ذلك . ولما كنت أطرب عند ما كنت
 تلعب معى كذلك كان يطرب الاطفال عند ما كنت ألعب معهم . وهذا زواجنا
 هلمر : أنت مصيبة فى بعض مآقلته - مع ما فى قولك من المبالغة - ولكن
 سيكون المستقبل غير الماضى . سينتهى اللعب ثم تبدأ الدروس

نورا : أى دروس ؟ دروسى أم دروس الاطفال ؟

هلمر : دروسك ودروس الاطفال يا عزيزتى نورا

نورا : ولكنك للأسف لست الرجل الذى يستطيع تربيته لكى أكون
 الزوجة الحققة له

هلمر : وتقولين ذلك ؟

نورا : ثم أنا . كيف أستطيع أن أربي الاطفال ؟

هلمر : نورا !

نورا : ألم تقل وقت غضبك أنك لا تنق بى لتربية الاطفال ؟

هلمر : وقت الغضب : كيف تهتمين بذلك ؟

نورا : ولكن الواقع انك كنت محقاً لانى غير كفء لهذا الواجب . وعلى
انا واجب يجب أن أقوم به أولاً وهو أن أجتهد وأربي نفسى ولست أنت
الرجل الذى يمكنه مساعدتى فى ذلك . فعلى أن أقوم بنفسى بهذا العمل وهذا
هو السبب الذى يدعوني لان أتركك الآن

هلمر : (يهيب واقفاً) ماتقولين ؟

نورا : يجب أن أقف وحدى وأعتمد على نفسى إذا كنت أريد أن أفهم
نفسى كما أفهم كل شىء حولى ولهذا لا يمكننى أن أبقى معك بعد ذلك
هلمر : نورا ، نورا !

نورا : سأخرج الآن من البيت

هلمر : تتركين بيتك وزوجك وأولادك ولا تبالين ما سيقوله الناس عنك

نورا : لأبألى ما سيقوله الناس ، انما أفعل ما أراه ضروريا

هلمر : هذا عجيب ، أهكذا تهملين أقدم الواجبات ؟

نورا : وما هى أقدم واجباتى ؟

هلمر : وهل أنت فى حاجة إلى أن أخبرك ؟ أليست هى واجباتك نحو

زوجك وأولادك ؟

نورا : عندى واجبات لا تقل عنها قداسة

هلمر : أى واجبات هذه ؟

نورا : واجباتى نحو نفسى

هلمر : أنت زوجة وأم قبل كل شىء

نورا : لست أصدق هذا الآن . لانى أعتقد انى قبل كل شىء إنسان كما

انت انسان . أو على الاقل يجب ان اجتهد حتى أصير انساناً . وانى أعرف أن

معظم الناس يؤيدونك فى رأيك وان مثل رأيك هذا يقال به فى الكتب ،

ولكنى لن اقنع بعد الآن بما يقوله الناس أو بما تقوله الكتب انه

يجب على أن أفكر بنفسى وأفهم

هذا هو شيء من الحوار الذى يدور بين الزوجين . وهو كما يرى القارئ
ينتهى بأمرأة هى زوجة وأم بأن ترفض الزوجية والامومة لكي تبدأ فى تربية
نفسها كي تكون انسانا

ولكن كيف يكون ذلك ؟

ان الدراما تنتهى بايصاد الباب ولكن إلى أين تذهب نورا وما هو
برنامجها فى تربية نفسها ؟

ستذهب بلا شك إلى أحد المصانع أو المكاتب لكي تتعلم وتعمل وتكون
لنفسها شخصية جديدة كانت إلى الآن غائبة فى الزوج والاولاد . ولا بد انها
ستلقى المصاعب وتكابد المشقات فى هذا الطريق الوعر الجديد ولكن هذه
الشخصية التى تنشدها لن تتربى إلا بهذه المصاعب وبما تتعلمه من الفشل والنجاح
وهذه هى المرأة الاوربية الجديدة . وإبسن هو لذلك حجر الزاوية فى
الأدب الاوربى الجديد وخاصة فى الأدب الأمريكى والانجليزى . ونورا التى
كانت خيالا أو أملا يتحرك على المسرح سنة ١٨٩٠ هى الآن حقيقة نرى
من اشباهها الآلاف فى لندن ونيويورك وبرلين كما نرى ان المسرح بها وأمثالها
قد أصبح مدرسة لدرس الحياة

اتهامه من الرواد

ليس من الممكن أن نذكر جميع الادباء الذين ساهموا في حركة التجديد الانجليزي وكل ما نستطيعه ان نذكر الاعيان . وقد يكون في الترجمة المفصلة المسهبة لواحد من هؤلاء الاعيان ما يبصر القارئ بالزعات التجديدية ويقفه على أسبابها أكثر مما يكون في ايراد التراجم المختصرة ومرد الاسماء والمؤلفات ولكن الاقتصار على ترجمة أو ترجمتين مع ما فيه من الفائدة اذا عمدنا الى الاسباب والاستيفاء لابد ان يرافقه نقص في الاحاطة بجملة المجددين . وهو نقص يضطر اليه على سبيل التوضيحية

فلا بد لنا ونحن نذكر الحركة التجديدية ان نهمل دكنز وسونبرن وأوسكار وايلد وأمثالهم من رجال العصر الفكتوري الذين ساهموا بالقليل أو الكثير في الحركة التجديدية . والشعور بالتوضيحية يشتد هنا عند ذكر دكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) فان هذا الكاتب العظيم استجاب للوسط الصناعي الجديد بقصته « أيام الشدة » وحسبك ان تقرأ له هذا الوصف للبلدة الصناعية « كوكتاون » لتعرف مقامه في ميدان الاصلاح الاجتماعي وكيف انه استطاع ان يجعل أدبه وسيلة لخدمة الانسانية . قال :

« كانت بلدة قد بنيت من الاجر الاحمر أو من الاجر الذي كان يكون أحمر لولا طبقة الدخان والرماد التي تكسوه . ولكن كوكتاون كانت بهذه الطبقة بلدة تبدو بجدرانها الحمراء السوداء في ألوان غير طبيعية كأنها وجه رجل متوحش قد طلاه بالادهان والاصباغ

« وكانت حاشدة بالآلات والمداخن السامقة التي كانت تنساب منها ثعابين الدخان يتحوي بعضها على بعض فلا نهاية لتحويها ولا افتكاك

« وكانت بها قناة سوداء ونهر تجري مياهه حمراء بصبغة كريهة الرائحة .

وكان بها أكوام من الميساني التي تملأها النوافذ . ثم كان بها عجيج وارتجاف طول النهار حيث كان كباس الآلة البخارية يهبط ويصعد كأنه رأس فيسل قد أصابه الجنون . وكان بها عدة شوارع كبيرة كل منها شبيه بالآخر يقطنها ناس كلهم متشابهون يدخلون بيوتهم ويخرجون منها في وقت معا يؤدون عملاً واحداً . وكان كل يوم عندهم يشبه يوم أمس ويوم غد وكل عام يشبه السنة الماضية والسنة القادمة »

ولم يصف أحد من الكتاب الأثر السيء الذي أحدثته الصناعة الآلية في المدن كما وصفه دكنز . ومن هذه النبذة يمكن القارئ أن يرى التفاعل بين الحياة والأدب وكيف أن الأديب يخدم الإصلاح الاجتماعي بأدبه ويكشف عن مساوئ الصناعة . ودكنز من هذه الناحية يعد رائداً في الأدب الانجليزي الجديد وقد ترك تراثاً لمن خلفه في التخصص هو « القصة الاجتماعية » التي ترى على أوفائها عند ولز . بل هذه النبذة التي نقلناها عن دكنز لو أنها قرئت في غير أصلها لاخطأها الناقد ونسبها الي ولز

وهنا يجب ان نقف بالقارئ قليلاً لكي نقول ان أسمى الامثلة من القصص أو الدراما الانجليزية انما هو وسيلة لخدمة الاجتماع وليس غاية في نفسه . وهناك مثل ميرديت أو والتر باتر أو أوسكار وايلد من نظروا إلى الفن نظرة فرنسية وجعلوا الجمال غاية الأدب كما هو نظر أناتول فرانس . ولكن هذه النظرة بعيدة اجمالاً عن روح الأدب الانجليزي . وان كنا نعثر عليها من وقت لآخر ونجد منها القليل من الامثلة

وقد كان أناتول فرانس يقول عن الأدب انه لايتوخى الحقائق لان توخي الحقائق انما هو من شأن العلم اما الأدب ففن من الفنون . والقصة يجب ان تكون كالصورة أو المثال ليس وراءها غاية وقد سار هو على هذا المذهب . وهو مذهب جدير بالاحترام . وإذا صدق فكل ما نقوله عندئذ ان الأدب الانجليزي يتجه بكل صراحة نحو العلم . والواقع أننا نجد في انجلترا عدداً كبيراً

من الادباء الذين يصح لنا ان نسميهم أيضاً علماء.
ومن هؤلاء صمويل بطلر (١٨٣٥ — ١٩٠٢) وهو الرائد الذى يقول
برنارد شو انه تعلم منه ، فانه مزج بين الادب والعلم والى فى القصص كما الف
فى نظرية التطور . وهو يعد من الثائرين على العصر الفكتورى من حيث تنديده
بالحياة العائلية والعرف والكنائس . اما فى العلم فيمكن أن نرى فيه رأى
برجسون الفرنسى ، فانه كافح داروين فى نظره الآلى للحياة وأبى إلا أن يرى
فيها قصداً تقصد اليه بل غاية سامية تسمو اليها . فعند داروين ان الاحياء تتطور
لأنها تصطدم بحوادث يموت فيها العاجز ويبقى القوى المحتال ، فالتطور إذن
خبط عشواء . ولكن بطلر لم يستطع قبول هذه النظرية وأبى إلا أن يؤمن
بأن فى الحياة حكمة ترشد الاحياء نحو غاية سامية قد لا نستطيع ان نعيناها من
الآن ولكن يمكننا أن نلمحها من سيادة الانسان على سائر الكائنات .
وبعبارة أخرى نقول ان داروين مَادى فى تفسيره للتطور أما بطلر وبرغسون
فخيويان يؤمنان بالقصد والغاية فى الحياة . والرأى السائد الآن هو رأى بطلر
وليس رأى داروين

أما قصصه فمكتسبة من اختباره ، ولذلك ننقل منه هذه النبذة التى
كتبها عن والده

« لم يحبني كما انى لم أحبه . ولم اذكر وقتاً لم أكن أخشاه وأكرهه ، وكـ
من مرة كنت ألين وأقول لنفسى انه رجل طيب لا بأس به ولكننى لا أكاد
أفعل ذلك حتى يعود فيصدمنى ويملاً نفسى مرارة نحوه . ولست أشك فى أنى
سلكت معه مسلماً يبعثه على الاستياء منى كما لست أشك فى انى ارتكبت معه
ذنوباً كثيرة ولست واثقاً من ان اخطأه كانت أكثر من اخطأى . ولكن
الواقع ، بصرف النظر عن هذه الاخطاء ، انى بقيت سنوات طويلة لم يمر بى يوم
إلا وكنت أفكر فيه مرات وأرى فيه الرجل الذى يقف ضدى ويرى الجانب
السيء بدلا من الجانب الحسن فى كل ما أقوله أو أعمله »

هذا الوسط العائلي هو الذي حارب به بطر بقصته « طريق اللحم » وهو الذي

حارب به بعد ذلك برنارد شو

والشباب أو الفتاة سواء في بريطانيا أو الولايات المتحدة هما الآن أكثر
فتيان العالم استقلالا عن الأسرة . ومن المبالغة ان نقول ان هذا الاستقلال
يعزى إلى الادب لأنه في الحقيقة يعزى إلى الوسط الصناعي الجديد الذي جعل
المرأة تعمل في المصنع أو المكتب وتستقل بمعاشها عن أهلها ولا تكاد لذلك
تبالى طاعة الأبوين . وكذلك هو يعزى إلى وفرة الملاهي الجديدة مثل التومبيل
والسينما توغراف . وكلاهما عمل لتفكيك الأسرة الانجليزية ولسنا الآن نجد
أبا يشبه ذلك الذي نكب به صمويل بطر ولكن مؤلفات بطر تدانا على
مقدار الجمود في ذلك العرف أو الأخلاق الانجليزية مدة العصر الفكتوري .
وهو عرف كان يفشى الشقاء في الأسرة

لقد ذكرنا هذا دكنز وكيف سخط على الوسط الصناعي الجديد ووصفه
أدق وصف وأبشعه . ثم ذكرنا صمويل بطر وكيف كره الحياة العائلية
وأنكرها . ولكن القارئ المصري لا يمكنه إلا أن يعترف بأن هذا الوسط
الصناعي هو الذي كان العلاج الحقيقي لجمود العائلة الانجليزية لأنه فك قيودها
ونقص الاستبداد الأبوي بالحرية الجديدة التي لقيتها الفتاة الانجليزية في الصناعة
وبالملاهي الكثيرة التي جعلت الشاب ينشد سلواه خارج البيت

إن للصناعة وجوهاً سيئة ولكن لها وجوهاً أخرى حسنة ومن حسناتها
هذه الحرية التي يتمتع بها الآن الشبان والفتيان في العالم المتمدن

المنحطون في الأدب الانجليزي

في أوائل هذا القرن نشر ما كس نورداو كتاباً عن «المنحطاط» تناول فيه جماعة كبيرة من الادباء والشعراء بالنقد واتهمهم بأنهم انما نزعوا نزعاتهم الخاصة لأنهم منحطون . فهم مجانين أو قد اقربوا من الجنون ونزعاتهم انما هي زعات العقل المضطرب المفتون . ولذلك فان كل ما يدعون اليه من فلسفة أو اصلاح ليس في حقيقته وعند التأمل سوى هراء الابله أو هذيان المحموم

وقد ذاع هذا الكتاب لان التهمة طريفة والرأي بدعة وكلاهما يلفت النظر ويبعث على التأمل . وقد مضي على نشر هذا الكتاب نحو ثلاثين سنة تكفى لتأييد نظرياته أو ادحاضها . والواقع الذي نراه الآن انها قد ادحضت جميعها . وان هؤلاء المنحطين الذين ذكرهم ما كس نورداو أما أن الجمهور قد تناساهم لأنهم لم يكونوا من القدرة والكفاية بحيث يستحقون دوام الذكر واما انهم قد نبتوا لان كفايتهم لم تزعزعها التهم التي وجهها اليهم هذا الطبيب الأديب . وحسب القارىء أن يعرف أن فيتشه وتولستوى وإبسن وضعوا في مقدمة المنحطين عنده وهم الآن من زعماء النهضة الاوربية

ولكن قبيل ما كس نورداو أى في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت طائفة من الكتاب في فرنسا وانجلترا يجوز لنا أن نسميهم بالمنحطين . بل لقد عرفت الطائفة الانجليزية نفسها وارتضت هذه الصفة وأطلقتها علي نفسها

والمنحطون في الأدب الانجليزي يمتون بنسب الى المنحطين في الأدب الفرنسي وقد تتلمذوا إلى حد ما لبودلير وجوتيه . ولكنهم كانوا مع ذلك مستقلين يجدون في البيئة الانجليزية نفسها السم والدسم لأديبهم . وقد أخصبت بهم انجلترا في السنوات الثلاثين بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠

ولكى تفهم المنحطين في انجلترا يجب أن نعود فننظر نظرة عاجلة في أبى

نواس . إذ ليس هناك شك في أن هذا الشاعر العظيم كان منحطاً وهذه حياته وأشعاره توضح لنا هذا الانحطاط . وإذا نحن تأملنا البواعث التي بعثت عليه الفيناها تتلخص في « رد الفعل » الذي شعر به هذا الشاعر وهو يعيش في مدينة تحتوي على صنوف من فتنه المدن وملذاتها ثم ينظر فيجد أن الشعر لا يزال بدوياً لا ينطبق على حال هذه المدن . فهو ثار على الشعر البدوي يدعو إلى حياة المدينة وملذاتها وهو في ثورته يبالغ ويمعن لأنه يريد الانتقام . وكلما أمعن وبالع تورط فيما يتجاوز صحة الفن وسلامة النظر . فهو هنا مجدد . ولكنه في تجديده منحط وكذلك الحال مع هؤلاء المنحطين الانجليز فانهم ثاروا على أدب القرن التاسع عشر وبالغوا في الثورة إلى حد الانتقام للحديث من القديم فتورطوا في أشياء لا تختلف عما تورط فيه أبو نواس حتى لقد مارس بعضهم بعض رذائله وحتى لقد دعوا إلى المدينة مؤثرين حياتها على حياة الريف يفضلون جمالها وضوضاءها على جمال الطبيعة وسكونها . كما آثر هو المدينة على البادية . ولكنهم كانوا حتى في هذا الانحطاط مخلصين . وهم الآن بعد زوال أشخاصهم قد ذهب زبدهم وبقي منهم ما ينفع الناس

كانت إنجلترا في القرن التاسع عشر منكوبة بزعتين أحدهما سلطان العرف^١ والعادة والثانية الروح الطهرية التي كانت تجنح إلى النسك وكرهية الملذات الفنية وكلتا الزعتين تدعوان في النهاية إلى الانكفاف والاحجام والخوف من التجارب والبدع . ولذلك حدث « رد الفعل » في نهاية القرن التاسع عشر وكان شديداً عنيفاً حتى لقد انتهى عنه بعض القائلين به بالسجن أو الموت المبكر أو التشريد . ولكن مع كل ذلك بقي من هؤلاء المنحطين أثرهم في الأدب الانجليزي الحديث . ففي إنجلترا الآن نهضة تنزع نحو الاغريق وتدعو إلى الجمال وفيها ثورة على العرف وجرأة على الابتكار في الاخلاق وبها نزوع إلى التجربة والاقتحام وكل هذا يرجع إلى هؤلاء المنحطين الذين احترقوا بالنار لكي يعرفوا الناس فوائدها

وأول هؤلاء المنحطين هو والتر باثر الذي دعا إلى الوثنية الاغريقية وفن

الناس بالزوع الى اللذة والجمال وهو القائل مامعناه اننا يجب أن نختبر الاختبار ونجرب التجربة ولكن ليس لكي نجني منها ثمرة فزداد حكمة وانما علينا أن نختبر لنجرب للذة الاختبار والتجربة وحسبنا ذلك منها . وهذا مذهب غيف لا يستطيع أن يتحمل قائله عواقبه أو يعمل به كله . ولكنه يدل على « رد الفعل » للقرن التاسع عشر

أما المنحط الثاني فهو أوسكار وايلد الذي كان يتأنق في أسلوبه وحديثه . وقد دفعه التأنق الى الشذوذ . وكما أن الكاتب المتأنق يتحرى اللفظة النادرة ليريقها أو رنينها كذلك هو صار يتحرى الشذوذ في ملذاته وينزل على رأى باتر في توخي التجربة أو الاختبار للذة فقط . واختياره لقصة سالومة ويوحنا الممدان يدل القارئ على هذا الذوق الذي ينشد الجمال الشاذ ويمشق الموقف عند أزمة العواطف وهزيمة العقل أمام الشعور

وكلاهما أى والتر باتر وأوسكار وايلد يدعوان دعوة جديدة هي التعمق في الحياة . فان عامة الناس يعيشون على السطح يلمسون من الحياة أقل تجاربها وأبسطها ولا يكادون بل منهم من ينكف ويحجم كأنه راهب يخشى الاقتحام والانغماس . ولكن هذه الحياة لا يمكننا أن نصل منها الى الباب والصميم حتى تنففس فيها ، تنففس في الحياة كما تنففس في اللذة ، وانما يكون ذلك بالتعمق والتوغل في الاختبارات والتجارب

هي دعوة وثنية أغريقية يمكنها أن تثمر الثمرة المرة كما تثمر الثمرة الحلوة . وقد نستطيع أن نرى في قصة جرات الين « المرأة التي فعلت » مثالا من ثمرات هذه الدعوة . فهو هنا يصف لنا فتاة ترفض الزواج استبقاء لحريةها وثورة على العرف

وقد يعد الانسان هذه القصة كما يعد قصة دوريان جراى لاوسكار وايلد من الثمرات المرة لهؤلاء المنحطين . ولكن كل واحد من هؤلاء المنحطين قد ترك أثراً حسناً في الادب الانجليزى الى جانب ما نظنه آثاراً سيئة . فان المسرح الانجليزى مثلاً قد ارتقى بفضل أوسكار وايلد الذي يمكن أن نقول انه مهد

لبرنارد شو بتعويد الناس الحوار البارِع بين الممثلين والانتقاد الاجتماعى عن سبيل الفكاهة اللاذعة . وكذلك ولتر باتر مازلنا الى الآن نرى أثره فى الطبقة الجديدة من الكتاب مثل لورنس والدوس هو كسلى

وللمنحطين — كما هو المنتظر — شأن خطير فى الأُدب الفرنسى . وللمنحطين الانجليز صلة قوية بهم حتى لقد ألف أوسكار وايلد احدى دراماته « سالومة » باللغة الفرنسية . ولكن هؤلاء الانجليز بادوا ولا يزال الانحطاط حياً فى فرنسا كما نرى فى مثال أندريه جيد . ومهما بلغ المنحط الانجليزى فانه لم يصل الى مستوى بير لوتى الذي كان يدهن وجهه بالمساحيق والاصباغ ويسلك مسلك أبى نواس فى شبابه

ويمكن أن نلخص السمات التى اتسم بها المنحطون فيما يلى :

- ١ — الدعوة الى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف
- ٢ — ايثار المدينة والصناعة على الطبيعة والسذاجة
- ٣ — توخى اللذة حتى ولو كانت شاذة تخالف المؤلف فى الطبيعة
- ٤ — وضع الحياة الحسية فوق الحياة الذهنية
- ٥ — ايثار الفن على الطبيعة بل على الحقيقة

كبلنج . شاعر الاستعمار

في انجلترا الان ثلاثة من الادياء يشهد لهم قارئهم بأنهم دعاة عظماء للرجعية يناخون عنها في بلاغة وقوة وإيمان . ومن هؤلاء اثنان يكرهان العصر الحديث قلبا وقالبا هما تشستر تون وبيلو ك . وكلاهما كاثوليكي يكره بدعة البروتستنتية ولو قام جهاد ديني لقمع هذه البدعة لتجند كلاهما فيه . ثم هما يحنان حيننا عظيما الى القرون الوسطى ويتغنيان بها كأنها الجنة المفقودة فهما يذكران منها مثلا نظام « الطوائف » ويتحسران على زواله . ويذكر بيلو ك النظام الاقطاعي بالاعجاب . وكلاهما يكره مذهب داروين وينكره بلهجة الجزم التي ينكر بها المتدين عقائد خصومه . وهما يدافعان عن البابا والكاثوليكية كما يدافعان عن عصر الصناعات اليدوية

أما الرجعي الثالث فهو كبلنج شاعر الامبراطورية أي شاعر الاستعمار . وهو يختلف من الاثنين السابقين من حيث أنه يؤمن بالقرن العشرين . وهو من الشعراء الذين يستطيعون ان يؤلفوا القصائد في مدح الاتومبيل والقطار والتلغراف . ولكنه مع ذلك رجعي يكره النزعات الانسانية الجديدة إذ هو داعية بليغ من دعاة الحرب لا يعرف عصبة الامم ولا يؤمن بتحقيق السلام . وهو نقيص « المنحطين » من حيث انه يجعل الفن وسيلة لخدمة الاستعمار البريطاني في حين انهم كانوا يجعلون الفن غاية . وهو مع إيمانه بالحضارة يكره منها نعومتها وما فيها من أساليب التطرية ويكتب عن الغاية وقتال الحيوان والانسان كأنه يعيش في العصور البدائية . وقد حام المنحطون ولعبوا بفكرة الترف والتطرية ولكنه هو لا يعرف من الرجال سوى الفحل الممتلئ بالرجولة وهو إذا انحط فانما يتجه انحطاطه نحو الاعجاب بالرجل المتوحش وليس بالرجل المترف الناعم

نشأ هذا المؤلف بالهند واكتسب مزاجا خاصا بالاقامة بين الجاليات الانجليزية في ذلك القطر العظيم الذى يشبه القارة . فهو انجليزى يحترق الهنود ويظن أنهم هم والمصريون والبوير والزنج لم يخلقوا وليس لوجودهم معنى أو مغزى إلا ان يخدموا شعب الله المختار أى الانجليز . وهو صاحب هذه الكلمة الاستعمارية المشهورة : « أنهم لا يعرفون انجلترا من لا يعرفون سوى انجلترا »

يعنى بذلك ان عظمة الانجليز تتضح في مستعمراتهم التى لا تغيب عنها الشمس فهو يعجب بالورد كرومر ويعده من عظماء العالم وينسى أنه صاحب فجعة دنشواى وانه ارصد حياته لكي يعوق أمة كبيرة عن التقدم . وأنه كان يبتز أموالها لدولته ويدعى حماية عمالها وهو يعرف ان هؤلاء العمال مرضى بالوان من الامراض وعلة هذه الامراض هى الناقة . وهو يعجب بسبل رودس لانه ارتكب من الجرائم وجر من الولايات على البوير ما كان يستحق عليه ان يشنق لو انه عومل معاملة التمدنين . ولكنه يعجب بكرومر ورودس لانهما انجليزيان استعماريان وينسى الانسانية والشرف والمروعة إذا ذكر المصريين أو البوير

وهو مع براعته النادرة في قرض الشعر وسمو الخيال يكاد الانسان يخرج من زمرة الادباء كلما تأمل البواعث التى تبعته على تأليف قصيدة أو قصة . فان الاديب يؤمن بالحرية الفكرية إذ هى دينه الذى يجب ان يدافع عنه مدى حياته . ويؤمن بالانسانية التى هى موضوع أدبه . ولكن كبلنج يخون الاثنين ، يخون الحرية ويخون الانسانية . وهو قبل كل شئ يدعو الى السيف والنار ويتغنى بالمدمرات والقواصات وهو فى انجلترا بمثابة تريتشكه فى المانيا مع فرق واحد وهو ان صوته لا يزال عاليا لان انجلترا خرجت من الحرب ظافرة بينما صوت تريتشكه قد خفت عندما انهزمت المانيا

وقلما تخلو أمة من الوطنيين الادباء يضعون وطنيتهم فوق ادبهم . ولكن

الوطنية إذا احتدت واحتدمت صارت مرضا يشبه الحمى فى نوباته ويدفع الى الهذيان . وقد كان تريتشكه الالماني يدعى ان العالم كله يجب ان يخضع لالمانيا . وكان تشمبرلن « الانجليزى المتألمن » يدعى أن العبقريّة والاختراع والمثل الاعلى كل هذه ثمرات المانية حتى السيد المسيح نفسه كان فى زعمه المانيا . . .

وكبلنج لا يهذى كل هذا الهذيان ولكنه يتغنى بالامبراطورية والاستعمار . ويتكلم عن عبء الرجل الابيض كانه يعنى مايقول ويؤمن به وكان الاستعمار لم يخترعه الرجل الابيض الا لخدمة السود والصفير والسمر من بنى الانسان وهم لذلك عبء عظيم يحمله الانجليزى والفرنسى بدافع شريف من دوافع المروءة والانسانية

وهذه الوطنية الحادة المحتدمة هى التى بعثت كبلنج على أن يقول مدة الحرب الكبرى هذه الكلمة الكافرة : ان العالم يسكنه اثنان هما النوع البشرى والالمان

وبنفس هذه الروح سبق له ان قال : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان » والشرق عنده مؤلف من الامم التى تستعمرها بريطانيا

وهو من حيث الاخلاق يدعو دعوة القرن التاسع عشر . فهو يطلب من المرأة ان تلزم بيتها ومن الرجل ان يعتمد على نفسه ويجترىء ويقتحم . وهو لهذين الغرضين يكره الاشتراكية ويناصبها العداوة . وانت تقرأ فتشعر ان صموئيل صميلز صاحب الكتب العديدة التى الفت فى هذا المعنى قد انقلب شاعرا يعظ الناس ويشرح لهم قيمة الاخلاق التى يمتاز بها الرجل الناجح فى جمع المال . وهو قصير النظر لا يستطيع ان يبصر حقائق النظام الاجتماعى ولا يتعظ بوجود نحو ثلاثة ملايين عامل عاطلين فى بلاده سبب عطلهم هو « نجاح » المالىين فى جمع المال . وكذلك هزيمة بلاده أمام اليابان فى التجارة لم تفتح عينيه . وكذلك نهضة الهند لم تنبه ذهنه الغافل

أما بعد ذلك فقل فيه ما شئت من براعة في نظم القصائد وتأليف القصص ويشق على الناقد ان يسلكه في زمرة خاصة من الرجعيين او المجددين . فليس شك مثلاً في أنه أبعد الناس عن المنحطين وهو أيضا أبعدهم عن المجددين . ثم ان رجعيته لا تمت بأى نسب إلى رجعية مورييس او روسكين أو تشستر تون أو بيلوك من حيث كراهة الآلات والعصر الصناعى الحاضر . وإنما هي رجعية الاستعماري الذي يستغل الآلات في جمع الثروة ولكنه يأبى ان يؤمن بالانسانية وقد يكون مما يوضح غرضنا أن نقول أنه نقيض بيرون في الاخلاق والخيال الشعري . وهو لو عاش قبل مائة سنة أى سنة ١٨٣٠ أو ١٨٤٠ لوجد الوسط المحيط به اليق به واكثر مشاكلة لادبه . ما الآن فلسنا نظن انسانا مثقفا يتطعم افكاره ويسيع نزاعاته . وهو لذلك بطل من أبطال المدارس الانجليزية يقرأه التلاميذ والطلبة ويتغنون بمجد الامبراطورية بانشاد قصائده . ولكن الانجليزى المذهب يجد كثيرا فيه مما يخجله أما غير الانجليزى فيجد كثيرا فيه مما يحنقه ويؤسفه على ان مثل هذا الرجعى يوجد في القرن العشرين

الاقتصاد فى الادب الجبريد

أخذت المسائل الاقتصادية تغمر كل شىء منذ أوائل هذا القرن فتدخل فى الدين والسياسة والادب : فصرنا نسمع عن « الاشتراكية المسيحية » ونقرأ لكهنة الدين المسيحى أقوالاً توهمنا أن السيد المسيح قد سبق كارل ماركس وأنه دعا إلى دعوته . بل ظهرت فى أوروبا أحزاب تمزج بين المسيحية والاشتراكية وترشح أعضاءها لى ينفذوا المبادئ الاقتصادية التى يدعو اليها الانجيل وكذلك السياسة أخذت منذ أكثر من خمسين سنة تتجه نحو الاقتصاد . فجالس الوزراء الآن لا تشتغل فى معظم أوقاتها إلا بالصناعة والزراعة والتجارة وزيادة الاجور وخرائب الجمارك ونحو ذلك . بل لقد شعر المستر تشرشل أحد وزراء بريطانيا السابقين بضغط المسائل الاقتصادية للبرلمان فاقترح تأليف برلمان آخر يقتصر عمله على النظر والفصل فى المسائل الاقتصادية . وهذه السنوات السود التى نعيش فيها تدلنا على ان السياسة إذا لم تكن اقتصاداً فهى ليست شيئاً يذكر وليس غريباً اذن أن يلتفت المجددون فى الادب الانجليزى الى الاقتصاد . فقد وجدوا ان للعوامل الاقتصادية آثاراً واضحة فى عمران الامة وأخلاقها . ولذلك انجهوا الى درس الاحوال الاقتصادية انجاءها قوياتاً لقوا القصص والدرامات لى يقفوا الجمهور على المساوىء الاقتصادية التى تجر فى عقبها مساوىء اجتماعية وأبرز الادباء الانجليز الذين جعلوا من الادب وسيلة لدرس المسائل الاقتصادية هم برنارد شو وولز . وهما أيضاً على رأس المجددين . ومن هنا نعرف أن كثيراً من التجديد الادبى فى انجلترا انما هو تجديد اقتصادى ولا تكاد تخلو قصة من قصص ولز من عبرة اجتماعية يستخرجها القارىء من الاحوال الاقتصادية . وأى شىء أفعل فى النفس من قصة « توتو بنجاي » التى يصف فيها كيف تجمع الثروة الضخمة بالغش والخداع ثم كيف تضاع فى

مظاهر اجتماعية سخيقة ؟ فهنا ترى رجلاً يؤلف عقاراً ويعلن عنه انه يشفى طائفة من الامراض ويؤسس الجرائد والمجلات والغرض الظاهر منها خدمة صحفية والغرض الباطن هو الاعلان عن هذا العقار . وليس في هذا العقار أى شىء لا يعرفه الناس وليس فيه أية ميزة ولكن الجمهور يقبل على شرائه لان الاعلانات المتكررة تستهويه وتقنعه بفائدته . ولا يزال صاحبه في هذا النشاط حتى يصبح من أغنياء العالم الممدودين . ويتساءل ولز هنا أى نظام هذا الذى يجزى لمثل هذا الرجل ان يخدع السذج حتى يستولى على نقودهم بمثل هذا الدواء الذى لا يفيد أحداً ممن يستعمله من المرضى ؟

ولكن ولز لا يقتصر على القصة . فهو قصاص بالمهنة ولكنه اشتراكى بالزعة وعندما يجد ان القصة لا تسعفه بتحقيق غرضه يعمد الى الموضوع نفسه فيخرجه مدروساً مشروحاً في كتاب برأسه . فمن ذلك كتابه « عوالم جديدة للقدمات » وهو في شرح المسائل الاقتصادية . وكتاب « شقاء الاحذية » وهو في هذا الموضوع أيضاً . وللأحذية مكانة في نفس ولز لا يستطيع ان ينساها حتى الآن وهو يرمح في العام أكثر من عشرين ألف جنيه . فانه نشأ وهو صغير في مسكن وضيع في بدروم أحد البيوت الكبيرة فكان يرى — لأول ما يرى — من السابلة في الشارع أحذيتهم

وفي هذا العام صدر له كتاب ضخيم لا يقل عن ٨٥٠ صفحة كبيرة هو أعظم شهادة على الرغبة الحارة التى تحدد هذا الاديب الى الاصلاح الاقتصادى وهذا الكتاب هو « العمل والثروة والسعادة » وهو يعالج الازمة المالية الحاضرة في ذكاء واحاطة جديرين بالاعجاب من الاختصاصي فضلا عن الاديب . والكتاب أشبه الاشياء بالموسوعة تشرح فيها كيف يعمل الناس في الصناعة والزراعة وكيف يلهون في فراغهم وكيف يتنقل الناس في أسفارهم وما هي مهمة المرأة في هذه الدنيا وما ينتظر منها وكيف تتألف الحكومات وما الى ذلك وكذلك برنارد شو . فان مؤلفاته ودراماته تكاد جميعها تتجه نحو الاشتراكية . وله كتب عدة في هذا الموضوع منها « اشتراكية المجالس البلدية »

و « الاشتراكية للأغنياء » ثم كتابه الضخم « دليل المرأة الذكية عن الاشتراكية »
 اما دراماته فجميعها تعالج موضوعات اجتماعية لها أساس اقتصادي . وهو
 يعزو جميع النقائص الاجتماعية كالبغاء والحرب والجرائم والأمراض الى عوامل
اقتصادية ويبحثها جميعها تقريباً من هذه الناحية . والقارئ لبرنارد شو يشعر
 في جميع ما يقرأ ان المؤلف يريد ان يبرز له هذه الحقيقة وهي ان في العالم فقراء
 يؤذيهم الفقر في صحتهم وأخلاقهم وأغنياء لا يعرفون كيف يتمتعون بغنائهم ولا هم
 مهتمون الى هذا الغنى لان تكاليفه تكاد أحياناً تزيد على مكافأته

وقد كان الفقر موضوعاً للأدباء ، قبل خمسين سنة . فان كتاب « البائسين »
 الذي ألفه فكتور هوجو هو في الحقيقة كتاب الفقراء لان البؤس هو الفقر .
 والقصص التي ألفها تولستوي و دستوفسكي و جوركي تنحو أحياناً كثيرة نحو
 هذه الغاية . ولكن القصد لم يكن واضحاً عند هوجو أو دستوفسكي أو
 تولستوي لان الفن يتغلب هنا على القصد الاجتماعي . وقد لانستطيع ان نقول
 مثل هذا القول عن جوركي لان غايته واضحة . ولكن لايسع القارئ مع
 ذلك الا أن يحس ان رجل الفن هنا أبرز من رجل الاجتماع

أما الادباء المجددون في انجلترا فان غايتهم تتضح وقصدهم يسفر . وقد
 يكون ذلك لانهم دون جوركي في الفن أو لان الرغبة في الدعاية المذهبية تتفوق
 على الحاسة الفنية . ولذلك كثيراً ما نجد ولز أو شو ينسيان القصة أو الدراما
 ويأخذان في شرح حالة اجتماعية بلهجة التدريس لا بلهجة القصص أو الحوار
 ولا يقتصر هذا الالتفات على هذين الادبيين البارزين فان هناك عدداً
 كبيراً من الادباء الانجليز قد جعلوا الفقر حجر الزاوية عندهم في القصة أو
 الدراما . وقد تجاوزت هذه النزعة كتاب انجلترا الى الكتاب الأمريكيين .
 فهناك نجد مثلاً ابتون سنكلير الذي خص نفسه لمعالجة الدعاية الاشتراكية في
 أسلوب سافر جعل جميع الناشرين يقاطعونه حتى صار يضطر الى ان يطبع
 مؤلفاته بنفسه

برنارد شو

قلما يتاح لأديب أن ينال من الذكر بين العامة والخاصة مثل ما ناله برنارد شو . فإن قراء الصحف الذين لم يعتادوا قراءة كتاب في الأدب يعرفون اسمه ويحبونه بينما هم يجهلون كبلنج أودوسكين أو ووز . وايس هذا من الجمهور الانجليزي فقط بل بين سائر الجماهير الفائرة في العالم المتمدين

وذلك لأن برنارد شو يمزج فلسفته بالفكاهة . فالأولى للخاصة والثانية للعامة . وهو في فكاهته يسو على النهريج . فأذا أراد أن يضحكك لم يدهن وجهه بالدقيق ويهرج لك نهريج البله والمجانين . بل هو يتأنق في أعمال التفكير وينظر الى ما وراء الظواهر فيزيل عن أوقار هيئته وينضو عن العرف ثيابه ويقف بك حيال الحقائق العارية . ولكن مثل هذا الموقف يؤلم لأنه يحرمنا من أوهامنا المحبوبة فهو لذلك يخفف من هذا الألم بالفكاهة

ويختلف برنارد شو من المنحطين اختلاف النقيض للنقيض اذ بينما هم يؤمنون باللذة ويدعون الى الاستمتاع يدعو هو الى النسك والزهد . ولا يعرف من اللذات غير اللذات الذهنية . فهو يتهالك على الصورة الفنية وينغمس في درسها أو هو يتهالك على الموسيقى ويرضى بتكبد المشاق لاستماع أحد الموسيقيين أو رؤية أحد الرقاصين ولكنه يصد صدوداً مستغرباً عن اللذة الجنسية . وقد عشق الممثلة الجميلة الين ترى فكان يراها وهي تمثل على المسرح ثم يتجنبها فلا يلتقيان ولا يتواعدان

وقد علل أحد النقاد هذا الزهد الجنسي بتعاليل مختلفة منها زهده في طعام اللحم وشراب الخمر . ولكن أصبح من هذا التعليل أن يقال أن زهده للنساء واللحم والخمر يعود الى منبع واحد في نفسه هو هذا المزاج الطهرى الذى نجد له أمثلة عدة فى انجلترا وهو ثمرة الدعاية الطهرية التى فشلت فى تلك البلاد منذ أيام كرومويل

وقد سبق ان قلنا أن كبلنج يجعل من الفن اداة لخدمة الامبراطورية والاستعمار . ويرنارد شو يشبهه من حيث استعمال الفن اداة ولكنه يخدم بهذه الاداة الاصلاح الاجتماعى . وهو قبل كل شىء يدعو الى الاشتراكية . وهو لا يبالي اتفاق رفته وماله فى تحقيق الاشتراكية . وقد تبرع بمبلغ ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال

ومن يتأمل مؤلفاته وحياته يجده عاش وما زال يعيش فى ظل داروين وماركس . وليس هذا غريباً فان حياته الذهبية تقع بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٩٣٠ وفى النصف الاول من هذه المدة كان التطور مثار المناقشة وموضوع المجلات والكتب . أما النصف الثانى فموضوعه الكفاح الذى لم ينته بعد بين الاشتراكية وبين الانفرادية

وقد نشأ برنارد شو فى ايرلندا من أبوين بروتستانتين . وكانت أمه نجيد العزف على البيان وكان أبوه سكيراً مستهتراً ورحلت به أمه الى انجلترا وكان برنارد لا ينجل وهو شاب من أن يعيش بما تتكسبه هي من الموسيقى . وقد استطاع بفضل هذه الأم أن يتوفر على القراءة

وكانت الاشتراكية حوالى سنة ١٨٨٠ بدعة تجذب اليها الشبان لكثرة نظرياتها وشكوكها واختلاط المذاهب بين القاعين بها . فجذبت اليها وكان هو أحد المؤسسين للجمعية الفايبة التى أخذت على نفسها تفضية الجمهور الانجليزى بالآداب الاشتراكية

والقاريء لبرنارد شو لا يسهه إلا أن يعرف بأنه اكتسب شيئاً كثيراً من الأجانب والانجليز . فهو متدين غير سنى يؤمن فيما يتعلق بما وراء المحسوس ببرغسون وشوبنهاور . وقد أخذ عن إبسن درامة « الموضوع » أو المسألة . كما أخذ شيئاً كثيراً عن نيتشه فى الاخلاق . وهو يؤمن بالتطور ولكن ليس عن طريق داروين بل عن طريق لامارك . أما اشتراكيته فكانت وما تزال اشتراكية ماركس

أما الكتاب الانجليز الذين تأثر بهم فكثيرون . منهم روسكين و صموئيل بطلر و دكنز و داروين

وهو في أسلوبه وغايته أقرب في الشبه إلى العلماء مثل برتراند روسل أو هافلوك أليس منه إلى الأدباء مثل رديارد كبلنج أو أرنولد بنت . فإن عبارته تمتاز بالدقة وتخلو خلواً تاماً من الزويق أو الرشاقة وأكاد أنوهم من مؤلفات برنارد شو أنه رائد لسلالة جديدة من الأدباء هي تلك التي تؤمن بالعلم وتقلع عن الأدب كأنه من الوسائل العتيقة التي مضى زمانها

والآن ما هي المهمة التي أداها برنارد شو لبنى عصره ؟

١ - - - أنه جعل الدراما اجتماعية فوصل بين المسرح والحياة وجعل منه مدرسة للكبار برون فيها معضلاتهم الاجتماعية

٢ - - - أنه أزال من المسرح تلك المسكنة التي كانت للغرام والحب والخيال الفاسد كما أنه قضى أو كاد يقضى على أساليب التهرج المسرحي من إيجاد وقائع دموية ومصادمات عنيفة تستثير الجمهور ولا تفيده

٣ - - - أنه جعل الفكاهة وسيلة إلى درس الفلسفة

٤ - - - أنه أفشى في العالم الأنجليزى روحا إنسانية تكره الاستعمار وتشريح الحيوان الحى وضرب التلاميذ وقتل الحيوان للطعام

٥ - - - أنه جعل التطور الداروينى مادة من مواد البرنامج الاجتماعى لاصلاح البشر

٦ - - - أنه أثبت في أذهان الطبقة القارئة المستنيرة ان الاخلاق عادات وعرف لا أكثر ولا أقل

هذه هي خلاصة مقتضية . ولكن علي القارىء المصرى أن يذكر أن برنارد شو رجل غربى يؤمن بأوروبا ولا يؤمن أقل الايمان بأسيا . بل هو إلى حد ما يؤمن بالسلالات الاوربية وانها زبدة البشر ولباب الانسانية وبكلمة أخرى نقول انه أبعد الناس عن غاندى

المرآة الاجتماعية

كان برنارد شو أول من جهد لتعميم الدراما الاجتماعية في المسرح الانجليزي . فقد دعا أولاً إلى دخول الدراما الابسية وكان بوقاً عالياً لهذا المؤلف التروجي ايسن الذي اكتسحت دراماته الخاصة في أوربا . ثم شرع هو منذ سنة ١٨٩٠ يؤلف للمسرح ويعالج المسائل الاجتماعية فله دراما عن البناء وعلاقته بالاحوال الاقتصادية وأخرى عن الايمان بالمسيحية وأخرى عن الحرب . الخ

وهو في بعض هذه الدرامات يهدم ولا يبني . وقد يعتذر عنه هنا بأن الهدم نصف البناء وأنه لا يمكن بناء إلا بعد ان تزول بقايا القديم وينظف المكان الجديد وقد سبق ان قلنا عن برنارد شو أنه يمثل الانتفاض على القرن التاسع عشر والثورة على عقائده ومؤسساته . ففي هذا القرن نرى الايمان بالديمقراطية التي هي النتيجة المحتومة للثورة الفرنسية . ونرى أن الرواج الصناعي قد بعث في النفوس آمالاً بالنجاح فزاد الايمان بالفردية والاستقلال الذاتي . ولكن درس الاحوال والتقلبات الاقتصادية وقف المفكرين على علل كثيرة في النظام الاقتصادي الحاضر وعندما نقرأ برنارد شو نجد أنه يمثل روح العصر في هذا النزوع الذي يشمل كل شيء تقريباً . فقد نزعزع إيماننا بأشياء كثيرة ووهنت عقائدنا أو انمحت ولكننا لم نضع مكانها إيماناً جديداً . وهذا الجهد الذي نراه عند كثير من العلماء مثل برغسون في القول بالبصيرة بدلا من العقل أو عند أوليفر لودج في القول بالارواح التي ترد إلينا من عالم الاموات أو عند جيمس جاز في القول بأنه يشرف على الكون عقل رياضي عظيم — كل هذه المحاولات لا يجاد ايمان جديد إنما هي برهان على نزوع العقائد القديمة ورغبة النفس الجائعة إلى الاستناد الى شيء بدلا من لا شيء

فإذا نحن درسنا برنارد شو أو من جاءوا بعده من الأدباء الاجتماعيين وجدنا شيئاً كثيراً جداً من الهدم مع القليل جداً من البناء . وعم من هذه الناحية يشبهون علماء الاقتصاد في الازمة الحاضرة . فان هؤلاء يجمعون الآن على فساد عظيم في النظم الاقتصادية الراهنة ولكنهم عندما يطلب منهم ايجاد مقترحات جديدة للعلاج يعجزون عن اقتراح أى شيء يمكن الاخذ به والاعتماد عليه غير القليل النافه

ولست مع ذلك أتعامى عن أشياء ومقترحات كثيرة اقترحها برنارد شو على سبيل البناء والعلاج . ولكنها يبدو عليها عند التأمل أنها في مكان الاعتذار عن البناء لا البناء نفسه . فهو عندما يأخذ في نقد المسيحية ويسير شوقاً بعيداً في الهدم ينتهي في ضعف الى التعلق بان الالهية كائنة فينا . وعندما يسقط في يده عن قيمة المنافسة بين الافراد في عصر صناعي وما تجلبه من ضرر بالناس يلتجئ الى الاشتراكية بتخففات عدة/

وقد يشعر القارىء انه ان ايمانه كبير وانه يعتقد اعتقاداً راسخاً بالعلم وفائدته . ولكنه لم يمكنه مع ذلك ان يصور لنا هيئة اجتماعية تعيش على مايراه لها إلا بعد أن يتخلص من العقل ويطيير بالخيال الى زمن مجهول في المستقبل يبعد عن زماننا بنحو ٣٠٠٠٠ سنة حيث تنقطع كل علاقة بين الحاضر والمستقبل

ومما يجب ان يلاحظ هنا ان جميع الادباء الذين يمثلون الانحلال ويعملون للهدم يتفاءلون بالمستقبل ويؤمنون أعظم الايمان بالعلم . وهذا مايرى من ولا وشو مثلاً . بينما العلماء أنفسهم أمثال برتراند روسل يتشاءمون من سلطان العلم ويتنبأون أسوأ النبؤات عن الهيئة الاجتماعية التي تعيش في ظل العلم ويقولون ان الفئة التي تحتكر الثقافة العالمية ستأخذ في الاستئثار بالسلطان وتسلط على العامة

ونظن ان القارىء سينتهي الى الاعتقاد باننا نستصغر شأن شو بهذا الذي

ذكرنا عنه . ولكن الحقيقة اننا نكبره ونعتقد انه أدى أعظم خدمة للأدب الانجليزي عامة وللمسرح الانجليزي خاصة بتوجيهه هذه الوجهة . ثم هو في ظروفه التاريخية لم يكن له مفر من ان يقف معظم مجهوده الادبي على الهدم . فقد نشأ في وسط اجتماعي ورث تقاليد عتيقة في الاسرة والاقتصاد والحكومة وعلاقات الدول ورأى ظروفًا اقتصادية جديدة في الصناعة تفعل فعلها في الانحلال فأخذ في شرح النقائص حتى تطابق الحال الاجتماعية الحال الاقتصادية وحسبنا من شؤانه فتح الاعين الى الاصلاح بأن وضع الاصبع على أمكنة الداء

وبرنارد شو عندما يعالج المسائل الاجتماعية ، نرى انه يحدوه الى هذه المعالجة نزعتان . احدهما تلك النزعة العلمية التي تجعله يؤلف كتابا في الاقتصاديات لاتقل ضخامته عن ٥٠٠ صفحة يشرح فيها قيمة النقد ومعنى البدل النقدي والعرض والطلب وأجر العامل وأجرة المقار ونحو ذلك ، مما هو أبعد الاشياء عن أدب يحترف القصص . والاخرى تلك النزعة الانسانية التي تعيد الينا ذكرى فولتير وروسو . وأحيانا تصطدم فيه النزعتان فانه يحارب العلماء والاطباء بماله وقلمه ووقته لأنهم يجربون تجاربهم حيانا في الحيوان الحى . وهم بالطبع يقصدون من هذه التجارب الى المنفعة الانسانية ولكن انسانية برنارد شو تمنعه من التفكير في هذه المنفعة اذا كان لابد من إيلاء الحيوان لاجل تحقيقها . وهو يكره القسوة بألوانها المختلفة ودرجاتها المتفاوتة . فهو من ناحية يلعن الاطباء والعلماء لأنهم يؤلمون الحيوان بما يسمونه التجربة العلمية ويهتمهم بأنهم انما يمارسون لذة خفية « سادية » بهذا الايلاء لاختلاف من لذة الرجل الذي يصاب بالشذوذ الجنسي حين يهجر المرأة الى غيرها ، ومن ناحية أخرى يخاطب الزوج الانجليزي ويبيكته في لهجة لاذعة من التقرير لانه يلح على اقتضاء حقوقه الزوجية بالنوم في سرير واحد مع زوجته

وبين هذين الطرفين نجد في معالجته للمسائل الاجتماعية بزعة كثيراً ما تتفق وأغراضه الاشتراكية فهو يكره الاستعمار ويذكر حادثة دنشواي بالتفصيل المؤلم . وهو يطلب الرفق بالاولاد ويصرح بأن هناك آباء سيئون تربية أبنائهم ويجب ان يفصلوا منهم . وقد آمن بنظرية التطور بل دعا الى الاستنارة بها في الهيئة الاجتماعية حتى ينشأ من الانسان « سبرمان » تكون نسبته اليها كنسبتنا نحن الى الفردة . ولكنه عندما اصطدم بمبدأ « تنازع البقاء » والطبيعة الحمراء بين المخلب والناجب أبت انسانيته ان يصدق ان في هذا الكون مثل هذه القسوة فرفض الايمان بهذا المبدأ وأخذ يحتمل على تفسير آخر للتطور كأنه يريد ان تكون الطبيعة انسانية أيضاً أو كأنه لا يفهم انه هو نفسه انسان لانه أرقى من الطبيعة

فلسفة برنارد شو

كان الفلاسفة في الأزمنة القديمة وبعض الحديثة لا يعدون أنفسهم جديرين بالفلسفة إلا إذا تكلموا عن الأصول والنهايات وما يتجاوز حدود التفكير المنطقي . ومن هنا لم يكن الفرق عظيمًا بين الصوفي والفيلسوف . ومن هنا أيضاً كانت الفلسفات متشابهة في الغاية والابهام أو الاستعصاء التام على الفهم . فلم يكن يفهمها إلا المعتقد الذي يرى ان العقيدة خيراً من الرأي والبصيرة أقتد من الفهم . وكان الفيلسوف لذلك يتعد عن الناس ويعيش في عزلة ونسك يحتر ذهنه ويكتب في القرن التاسع عشر ما كان يكتبه أفلاطون قبل ٢٣٠٠ سنة عن الفكرة والموضوع . أو الشيء في عقلنا والشيء في ذاته . الخ وقاما ينجو مفكر من هذه الشواغل الذهنية . وواقع انه يجب الا ينجو منها وأن تكون له منها رياضة بشرط الا ينفمس فيها لان الاختبارات الماضية تدل على ان الانغماس لا يأتي بطائل واتنا ننتهى بعد الجلد ونقاد الصبر والذهن الى أن نقول كما قال هربرت سبنسر ان كل هذه الاشياء هي « مالا تمكن معرفته » وفيلسوف هذه الايام اذن ليس هو ذلك الناسك الذي يتأى عن الناس ويتكلم من فوق رؤوسهم بما لا يفهمون . وانما هو الذي يختلط بهم ويدرس مسائلهم ويحاول المحاولات المختلفة لاصلاح أحوالهم بل اصلاح أجسامهم وعقولهم . وأنت اذا سألت عن المواد الخامة التي يغتذى منها الاديب أو الفيلسوف في عصرنا ألفتها أبعد ما تكون عما كان يفكر فيه الاديب أو الفيلسوف القديم . فهو الآن يجب عليه أن يدرس الطبيعة البشرية من المقامرة في البورصة ومضمار الجياد وعليه أن يجهد ذهنه في درس العوامل الاقتصادية التي ترفع وتخط الأمم أو الأفراد . فمسائل النقد والأجر والايجار والامتلاك والفاقة والغنى يجب أن تشغل باله لان جزءاً كبيراً من سعادة البشر يرجع اليها . ثم هو لا يمكنه الآن أن يستغنى عن العلوم لانه لم يعد في مقدور

انسان أن يتكلم عن الاخلاق والفضيلة والريضة ما لم يعتمد في ذلك على المكتشفات العلمية الحديثة

وبرنارد شو يعد من هذه الاعتبارات فيلسوفنا حديثاً يلح في درس الهيئة الاجتماعية الحاضرة قبل درس التاريخ ويؤلف الكتب في واجبات المجالس البلدية كما يؤلفها عن مستقبل الانسان بعد ثلاثين ألف سنة ويقرأ الكتب الطبية ويجاهر للناس بأن الطب مجموعة خرافات صارت حرفة يحترفها الاطباء للعيش . ثم يعود على الادب فينكر على أدباء القصة والدرامة اهتمامهم بالحب والغرام ويصرح بأن ذلك الرجل الذي يعدد مآثره الغرامية انما هو كذلك الآخر الذي يعدد مآثره في التهام ألوان الطعام سواء

وتمتاز الدراما كما يؤلفها برنارد شو بأنها خالية من الغرام أو هو فيها في المحل الثاني . بل هو أحياناً كثيرة يخترع الموقف للهكم بالعواطف الغرامية . ودراماته هي مصطرع الافكار يتألق منها شرر الذكاء في حوار بديع فلا يستطيع البليد الا أن يفكر كلما قرأ له درامة أو شاهدها ممثلة على المسرح . وله بدعة جميلة هي انه يكتب لكل درامة مقدمة تبلغ ١٥٠ صفحة يشرح فيها الموضوع الذي تعالجه الدراما . وهو هنا يشرح فلسفته ويسهب في بيان ما اضطر الي اختصاره في حوار الدراما . بل هو أحياناً يبالغ في هذه البدعة فلا يقنع بالمقدمة بل يؤلف كتاباً آخر ينسبه الي أحد أبطال الدراما ويلحقه بالدرامة نفسها . ففي « الانسان والبرمان » ترى على المسرح رجلاً يقول انه ألف كتاباً ثم يقدمه لأحد أصدقائه . ولا ندرى نحن المشاهدين من أمر هذا الكتاب شيئاً ولكن برنارد شو يكتبه ويلحقه بالدرامة المملووعة . وهو

كتاب جميل يبحث آداب الثورة والتأثرين لا ببناء القرن العشرين وليس لبرنارد شو « نظام » فلسفي كما ترى مثلاً لشوبنهاور أو برجسون وانما له أفكار فلسفية يمكننا أن نستخرجها من دراماته أو بالاحرى من مقدمات دراماته ولو شئنا لعددنا له الكثير من هذه الافكار . ولكن نقنع ببعضها أو

بالاهم دون المهم

فهو في الاخلاق يطلب حرية الفرد التامة . فلكل انسان أن يفعل ما يشاء من فضيلة أو رذيلة . فيرى أن ليس للهيئة الاجتماعية مثلاً أن تكف الناس عن الخمر ويبنى رأيه هذا أن مصلحتها الحقيقية تقتضى أن تباح الخمر لجميع الناس حتى تصطرع الارادات فيبقى الرجل الصليب الذي لا تغريه الخمر بالانغماس ويموت اللين الخريع الذي ينغمس في الشراب . وذلك أن من شأن الرذائل ان تقتل المهالكين عليها وان من مصلحة الامة أن ينقرض هؤلاء الضعفاء الذين لا يملكون ارادتهم حتى لا يبقى فيها غير الاقوياء . أو بعبارة أخرى يريد برنارد شو ان تكون الفضائل سجايا موروثية تجري في عروقنا وتمشى بنا كأنها بعض طبائعنا نلزمها عفواً وطبعاً وليس تكلفاً وتعلماً ولن يكون ذلك الا بأن تنقرض منا عناصر الشر بانقرض أصحابها . وانقرض أصحابها لا يكون الا بأن يستسلموا لها وينغمسوا فيها . واذا كانت الرذيلة لا تقتل أصحابها فهي اذن ليست رذيلة وليس ما يدعوننا الى أن تكف الناس عنها . فالنهم والمنغمس والمدمن والقذر والمستهتر كل هؤلاء يؤذون أنفسهم بما يمارسونه . فمن مصلحة الامة أن تتركهم حتى يبيدوا منها وليس من مصلحتها أن تقيم الحواجز لكي تكفهم عنها لان قصارى ما تفعله عندئذ انها تقيم قفصاً من الواجبات الاخلاقية . ولكنها مع ذلك لم تغير طبائعهم . وهو يضرب المثل بفرنسا التي تستباح فيها الخمر يشربها الصغار والكبار . فان الثرنسي أقل الأمم سكراناً وادماناً لان الذين أدمنوا قد هلكوا وباد نسلهم فلم يبق سوى المعتدلين

ولكن الذين رأوا تفشى المخدرات في مصر عقب الحرب لا يمكنهم أن يؤمنوا بهذه الاباحية . فقد رأينا نحن نصف مليون مصري تفرسهم المخدرات وليس فينا من يستطيع ان يقول الآن انه كان يجب علينا ان نتركهم حتى تقتلهم هذه المخدرات لانهم انما وقعوا فيها لضعف ارادتهم وان هذا الضعف جذير بأن تطهر منه الامة حتى لا يبقى فيها غير الاقوياء المستعصمين الذين يستطيعون ان يعيشوا ويتصنوا مهما أحاطت بهم الغوايات

ولمذهب داروين الأثر الأكبر في نزعات برنارد شو التجديدية . وهو هنا في موضوع الأخلاق إنما يجيز هذه الأباحية لأنه يرجو منها تطوراً يصيب القلوب والفرائز فتستحيل الأخلاق طباعاً موروثة لا يحتاج الناس إلى تعلمها وتكديدها وسن القوانين وإقامة الحواجز للمنع من مخالفتها

وهذا « التطور » يشغف به برنارد شو شغفاً عظيماً حتى لقد جعله موضوعاً لاثنتين من أقوى دراماته . وهو في واحدة منها يقترح إنشاء وزارة للتطور يكون رئيسها عضواً في مجلس الوزراء والقصد من هذه الوزارة تدبير الطرق وتبرئة وسائل لاستنتاج طراز جديد من الناس يكون أقوى جسماً وأذكى عقلاً وأصح غرائزاً منا . وهذا الطراز الجديد هو « السبرمان » أي ما فوق الإنسان . فإنه يقول أنه مادامنا في عصر ديمقراطي الحكم فيه للأمم فإنه يجب أن نجعل الناس يتطورون حتى إذا مرت القرون ظهرت سلالات جديدة من الإنسان تمتاز من السلالات القديمة بميزات إنسانية جديدة . وهو هنا يشرح للقارئ جهود الإنسان منذ فجر المدنية إلى الآن . فإن هذا الرقي الذي تفخر به إنما هو في أواسط الذي يحيط بنا وليس في أنفسنا . فنحن أبناء العصر الحاضر وآباؤنا قبل عشرة آلاف سنة سواء من حيث صحة الجسم وذكاء العقل لم نتقدم عليهم في شيء . وهذا التقدم الموهوم هو في الوسط فقط وهو هنا يستشهد على أننا والمتوحشين سواء في الفرائز بآلاف الأمثلة منها مثلاً أن المتوحشين يحملون رؤوس قتلائهم وكذلك فعل ككتشنر مع جثة المهدي في السودان

وهو يرى أنه لا بد لاستنتاج هذا الطراز الجديد من الإنسان من الانتخاب الذي يتجاوز حدود الزواج وهو يفرض وجود هيئة من العلماء تكلفهم وزارة التطور بتعيين الأشخاص الذين ترى في تزواجهم فائدة للأمة من نسلهم المنتظر . وهو هنا أباحى لاغش فيه . ولو أردنا الشرح والاسباب لتورطنا فيما لا يطيقه ذوق القاريء العربي ولكننا نقول أنه ينظر إلى القوانين والشرائع من حيث أنها عادات وعرف وأنه يجب أن تغير كلما وجدنا فائدة في التغيير . وهو يضرب المثل هنا بالزواج . فإن هذه الكلمة تحاط بهالة من الاحترام والقدسية حتى ليظن

الانسان انها تعنى شيئاً واحداً عند جميع الناس . مع ان الواقع انها تعنى عادات تختلف بل تتناقض . فهناك المرأة التي تزوج بضعة رجال في تبت . وهناك الرجل الذي يتزوج بضع نساء . وهناك الزواج الذي لا يجاز فيه سوى رجل وأمرأة لا أكثر . وينتقل من هذا البيان إلى استدراج القارئ إلى أن القول باستنتاج طراز جديد من الناس بلا زواج شرعى وعشرة دائمة بين الزوجين ليس قولاً غريباً وإنما هو ابتكار عادة جديدة يقررها وزير التطور ، أو هو زواج جديد

ولا يجوز لنا أن نتناول فلسفة برناردشو دون أن نشير إلى الاشتراكية . فانه يعلق هذا المذهب الاقتصادى على مذهبه البيولوجي السابق في استنتاج السيرمان . وما دامت المرأة حرة من هذه الناحية الاشتراكية تعمل وتكسب فهي تستطيع أن تختار زوجها بهداية غرائزها وهو يرى أن هداية الغرائز أدعى إلى ترقية السلالات الانسانية من أى اعتبار آخر من الاعتبارات الحاضرة في الزواج كأن تنشئ المرأة في الزواج كفيلاً يكفل لها العيش بدلاً من أن تنشئ فيه حبيباً ومحباً . ومن يقرأ كتابه الاخير عن الاشتراكية ثم عبثه بغيرها من المذاهب الاقتصادية يشعر انه قد مال الى الغلو ونأى عن الاعتدال وهو من حيث الدين — أو بكلام أصح — من حيث المعاني الدينية

يؤمن بالتصوف البرغسونى وان البصيرة هي التي تهدي الذهن وان التطور يحمل في نزعتة عناصر الرقى . وقد ألف ثلاث درامات عن الدين وهي وإن لم تدل القارئ على انه صريح الايمان بالله فإنها تدل على الأقل على انه مشغول بال بهذا الموضوع . ولكن لا يمكن مع ذلك أن يقال انه ملحد فانه يرى

أن الوظيفة هي أصل العضو وأن العقل هو الاصل للجسم وأن الفكرة هي الاصل للمادة وأن وراء الكون الظاهر عقلاً مختلفاً . وقد حمل علي داروين لانه حين عالج موضوع التطور نظر اليه نظرة مادية فأزال منه القصد والغاية وجعل ظهور الانواع الجديدة وفقاً على بقاء الاصح وهذا لايعنى عند داروين أكثر من الاعتماد على المصادفات العمياء وأن التطور يجرى جزافاً بلا قصد

من داروين الى برغسوه

. من الاهمال العظيم أن نغنى بحركة التجديد فى الادب دون أن نلفت إلى
عناية الادباء بالدين

صحيح أن الاديب الاوربى الآن لا يبالى كثيرا بالموضوعات الدينية كما
كان يبالىها فولتير مثلاً قبل ١٧٠ سنة، ولكن ذلك يرجع إلى ان الاضطهاد
الدينى كان قويا أيام فولتير . فلم يكن اهتمام هذا الاديب العظيم به إلا على سبيل
الجهاد للحرية فقط

أما الآن فانتا بفضل فولتير وغيره من الذين حاربوا الظلم والظلام نعيش فى
جو من التسامح الدينى لا يبعث الاديب على الجهاد للحرية . ثم ان محور المدنية
الحاضرة يعتمد فى حركته على الاقتصاديات ولذلك انتقلت هموم الادباء أو
معظم همومهم من الدين إلى معالجة الاقتصاديات

ولكن التجديد الادبى كما هو مشاهد الآن ومنذ اربعين سنة فى انجلترا
يرافقه تجديد دينى ترى علاماته فى كثرة المؤلفات التى يضعها كبار الادباء وفى
اهتمام الجمهور المتعلم بالفلسفة الشرقية عامة وفى الدعوة إلى محاربة المادية بألوان
من العقائد « الدينية » كالروحية والحوية والبشرية

وأول من ألقى الحجر وغكر المياه الصافية هو داروين . ولم يكن داروين
أول من تكلم عن التطور فقد سبقه لامارك وجوته بل سبقه جده لاييه .
ولمّا امتاز داروين بوفرة الشواهد التى اعتمد عليها فى التدليل على تسلسل
الاحياء الحاضر من احياء قديمة بائدة . ثم أن الكنيسة وقفت موقف العداء
فصار المذهب الداروينى حرباً بين الكنسيين والتطوريين . وهذه الحرب هى
التي أكسبت هذا المذهب قوة وانتشاراً

ولكن منذ أيام داروين ظهر لمذهبه عدو جديد غير الكنيسة . وقد وجد

أنصار داروين أن الانتصار على الكنيسة ليس شيئاً عظيماً ولكن الانتصار على هذا العدو الجديد لم يكن سهلاً ولا يعد حتى الآن كذلك

وهذا العدو الجديد يؤمن بالتطور والتسلسل ولكنه لا يؤمن بداروين . وذلك لأن داروين اعتمد على « تنازع البقاء » و « الانتخاب الطبيعي » كأنهما العاملين الوحيدان تقريباً في تطور الأحياء . وإذا نحن تأملنا هذين العاملين الفين معناهما ينحصر في المصادفة . فكأن الطبيعة عمياء تحبب في التطور وكأنه ليس وراءها إرادة أو عقل : وهذه هي المادية الصريحة

ولذلك نجد منذ أيام داروين حركة قوية يزعمها بطور الذي كان يؤمن بالتطور ولكنه كان يقول بأن الأساس أو المحرك لهذا التطور هو الإرادة أو العقل . وأن الإنسان لم يبلغ إنسانيته إلا لأنه أراد أن يكون إنساناً . فهذه الإنسانية لم نبلغها مصادفة بتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي ولم يكن ظهورنا على الأرض خبط عشواء ، كما يعتقد داروين . وإنما كان لأننا أردنا وقصدنا إلى الغاية التي انتهينا إليها . ولا عبرة بالقول بأن أسلافنا من الأحياء الوضيعة لم تكن تعرف هذه الغاية لأن عرفانها بها لا يقتضى الشعور أو الوعي . وهذا لا يمنع أن إرادة التطور إلى الإنسانية كانت مستقرة في نفسها

وهذا النظر الصوفي للعلم أو الإيمان بأن وراء الظواهر قوة خفية تعمل للرقى لا يمكن حذفه بالسهولة التي يبعثها البحث السطحي . فان التعمق في هذا الموضوع إن لم يؤد إلى الإيمان فانه سيؤدى على الأقل إلى الشك في المادية

وكلمة « المادية » تؤدى الآن معنيين في أذهان المفكرين . أحدهما ذلك المعنى الفلسفى الذى نعى به الإيمان بما يخالف الروحية والاقتصار على المحسوسات أو المعقولات . والآخر ذلك المعنى الاقتصادى الذى نقصده حين نفسر التاريخ تفسيراً مادياً فلا ترى وراء الحادثة أو الشخص سوى الظروف المحيطة التى تؤثر فيهما . والواقع أن هذا « النظر المادى للتاريخ » الذى أذاعه ماركس يشبه تمام الشبه ذلك النظر المادى للحياة الذى اعتمد عليه داروين فى تاريخ

الاحياء أى التطور . فكل من داروين وماركس يكبر من شأن الوسط ويصغر من شأن الحى

والآن نسمع فى بعض الاوساط أن مذهب داروين قد مات . وقائلو هذا القول لا يعنون أنهم لا يؤمنون بالتطور وإنما يعنون أن تنازع البقاء وبقاء الاصلح ليسا هما المحركان للتطور . وان فى الاحياء « حيوية » تسمو الى قصد وتتوخي غاية

وهذه « الحيوية » هي الآن مذهب يعارض المادية فى الفلسفة . وقد عادت الكنيسة الانجليزية بعد مشاكسة طويلة تؤمن بالتطور وتقول به لانها رأت فى هذه الحيوية شيئاً قريباً من الروحية واعزافاً بأن فى الكون عقلاً يدبر . وكان بطر أول من بذر هذه البذرة . ثم جاء بعده برناردشو فقال أيضاً بقوة الحياة . وأخيراً جاء برغسون العالم الدرنى فشرح وأسهب واستطاع أن يشق شقاً بين الماديين فيكتسب منهم البعض ويلقى الشك فى اذهان البعض الآخر . وهو إلى الآن محور المعركة ورجاء الروحانيين . وهو يرى ان الحياة نفسها دائبة لاتتفر فى التطور وهى ترمى الى قصد وان لم يكن معيناً . وقد يأتى يوم بعيد نعرف فيه غايتها ونقف منها على أسرارها . وذلك ان الحياة قد أخذت طريقين فى تاريخ الاحياء فى الماضى :

طريق العقل كما نرى فى الانسان

وطريق الغريزة كما نرى فى الحشرات

وكل من العقل والغريزة قد نشأ لمصلحة الحيوان للبحث عن الطعام وطلب الاتى والهجوم والدفاع ونحو ذلك . ولكن نحن نرى الآن أننا قد صار لنا من هذا العقل الوضع ذهن فلسفى يستطيع ان يتجرد من مطالب الطعام واللقاح الى التفكير فى الكون منشأ وغاية . واذن — يتساءل برغسون — لماذا لا يكون فى مقدور الانسان أن يستخرج من غرائزه بصيرة يستطيع أن يكشف بها

الحقائق كشفا لدنيا بلا غناء ولا تفكير كما تهتدى الحشرة الى فريستها أو انثاها
بلا تفكير أو تدبر

والغرائز كامنة في الانسان قد تغلب عليها العقل ويمكن احيائها في أى
وقت واستنباط البصيرة الفلسفية منها . وهذا هو النظر الصوفي على اقصاه
وأبلغه . وهو أيضا نظر طائفة من الادباء الذين يحاولون تجديد الدين . وفي
مقدمة هؤلاء برناردشو . فان هذا الاديب يخاف العلم خوفا حتميقيا مع أنه يرى
فيه الرجاء لتحقيق السعادة بتوفير الخيرات للناس . فهو لذلك ينذر الناس بأن
مصيرهم الى الفناء والدمار إذا لم يعتمدوا في حياتهم على الدين . ولذلك حمل
حملته المنكرة على داروين لأنه كما يقول بطرقد ألغى العقل من الكون
ووضع تنازع البقاء وبقاء الاصلح مكانه . فكانه بذلك قد جعل القتال والحروب
والتناحر والمزاحمة الى الموت سننا أو نواميس قد شرعها لنا الطبيعة فلا بأس
من أن نسير فيها . وهذا هو الدمار

والخوف من تقدم العلوم والحذر منه إذا لم يرافقه دين يتضح في جميع ما
كتبه شو وولز . فقد كتب هذا الثاني جملة مؤلفات عن الله والدين ولكنه
الحداخيرا وسكن الى الالحاد على الرغم منه . وأصبح يشبه القائلين بالبشرية
أى الايمان بالانسانية فقط والعمل لرفيها . ولكنه مع الحاده يدعو إلى الدين
البشرى لأنه يخاف مادية العلم وان يؤدي تقدمه إلى زيادة التنازع والتناحر
فيقضى هذا التقدم على الحضارة

وهنا يجوز لنا أن نتساءل : هل الباعث الحقيقي الى هذا الاهتمام بالتدين
عند بطر وشو وولز وبرغسون هو الاصطدام بحقيقة لا يمكن الهروب
منها أو هو الرغبة الحارة في إيجاد عواطف دينية رحيمة توازن المنطق
العلمى القاسى ؟

لندع هذا الان . ولكن يجب ان نقرر هنا ان هذا المنطق العلمى ينطوى
على قسوة تكاد تدفع بالانسان إلى الفرار منه إلى أية عقيدة يماسك بها كيان

الهيئة الاجتماعية ونو كانت كاذبة . فقد عبر برتراند روسل عن هذا المنطق العلمى أحسن تعبير فى كتابه « طوابع العلم » فوصف كيف يكون الناس حين يستفيض الروح العلمى ويسود الحكومة والتعليم والنظام عامة . فإذا به يخرج بعد هذا بجهم متقنة اوضع محبوكة الاطراف حيث يتغلب العبقريون ويتزاوجون فيما بينهم فتكون منهم سلالة منفصلة فى بناء الجسم تستبد بالعامه وتحرم على افرادها التعمق فى درس العلوم الخ .

هذا المنطق التامى الذى يخيف الادباء فى انجلترا وغير انجلترا هو الذى يدفعهم إلى تجارب دينية جديدة غير « بصيرة » برغسون . فمن ذلك هذه الثقافة الجديدة التى تنشت فى الاوساط المتعلمة فى أوربا عن درس الاديان الشرقية . ومن ذلك هذه الحماسة أو هذا التلهف لدرس الطبيعيات الجديدة على يد جاز وادنجتون العالمين الانجليزيين اللذين يقولان بان وراء الكون فكراً مديراً

ولم يبلغوا بعد نهاية هذه التجارب . فمنهم المؤمن القديم ومنهم الذى يوهم نفسه بأنه يؤمن بايمان جديد . ومنهم المتردد ومنهم الملحد الذى سكن إلى الحاده
سكون اليأس

ولكن لن نفهم الحركة التجديدية فى انجلترا بل فى عالم الثقافة الاوربية حتى نولى هذه الافكار بعض انتباهنا

ولز

كان الأدب الناشئ في إنجلترا يقضى تعلمته في درس الشعر والتاريخ والأدب القديم . أما الآن فإنه يبدأ بدرس الآراء الاقتصادية والاجتماعية . وكان الأدب قبل نحو مائة سنة يحوم حول الآراء الاجتماعية ولا يكاد يمسها أما الآن فإنه ينغمس فيها . وتعود هذه الظاهرة الى أن الوسط القديم لم يكن معتمداً ولم تكن المسائل الاجتماعية والاقتصادية تبرز بروزها الحاضر وتفسر المفكرين على التفكير فيها ومحاولة حلها . ويجب أن لا ننسى أن الوسط يؤثر في المذاهب الأدبية كما تؤثر المذاهب الأدبية في الوسط . وذلك أن الأدب يستمد إلهامه من البيئة التي تحيط به سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية . وهو يستجيب لها أو لواحدة منها بمقدار الصدمة التي يصطدم بها ذهنه منها . فإذا كانت الحال الاجتماعية أو الاقتصادية من التعميد بحيث تنبه وتوقظ كما هي الآن بمفاجأتها وحروبها وأزماتها وثوراتها فإن الأدب الناشئ يضطر الى درسها ويعنى بها أكثر من عنايته بالأدب القديم

وقد سبق أن قلنا أن الثقافة الانجليزية أصبحت اجتماعية . والآن نقول أن الأدب الانجليزي أصبح اجتماعياً . ولو أننا قابلنا بين أدبيين عظيمين يفمران عالم الأدب الآن مثل شو وولز بالأدباء الذين عاشوا في القرن التاسع عشر لألفينا الفرق واضحاً . فإن أولئك الأدباء لم يعرفوا القصة الاجتماعية كما يمارسها الآن ولز ولم يعرفوا الدراما الاجتماعية كما يمارسها شو

وقد ظهر أدباء مجددون لهم بريق وحرارة . ولكنهم لم يستطيعوا الى الآن أن يكسفوا ببريقهم شو وولز . وذلك لأن هذين الكاتبين تناولا الحياة الانجليزية بمشرط الجراح ودأب كل منهما في إيضاح العلل والأمراض حتى اصطبغ تفكير المفكرين عامة بأرائهما . وأنت حين تقع على رأيت مخيف بل

مرعب للمستر برتراند روسل أو للسيدة زوجته ، أو للمستر هولدمان جولياس أو الآنسة ابنته (في أمريكا) فانك تستطيع أن تبحث عن البذرة الأولى في هذين الكاتبين . وأيضاً عند ما تجد أسقف برمنجهام يقف في كنيسة ويجرح شعور المؤمنين حين يصرح لهم بأن القديس فرانسيس لم يكن يستحم فانك تستطيع أن ترجع في استقصاء هذه الوقاحة إلى الروح العالمى الذى يكتب به ولا إلى أن طهارة القداسة عنده لا تساوى نظافة الجسم

ولم يقتصر ولا على القصة الاجتماعية فان دراساته في الموضوعات الاجتماعية قد تعددت . فانه ألف كتباً مستقلة عن الاشتراكية والتاريخ والتنبؤات الاجتماعية والدين والاقتصاد . وهو لم ينس نزعته الأولى وهى الزعة العلمية فان أول كتاب ألفه كان عن التشرح . وقد حرر — ولم يؤلف — كتاباً ضخماً عن المعارف العلمية الحديثة . وله قصص يعتمد فيها على نظريات علمية سواء فى البيولوجية أو السيكلوجية . وقد ورث جول فرن فى القصة الخيالية التى تعتمد على العلم وألف فى الحروب الهوائية القادمة وطعام الآلهة والجنون الذى ينشأ من مركب النقص

ومع هذا الروح العلمى الذى يسود ثقافة ولا فانك تقرأ قصته فلا تشعر بأى نقص أو خلل فى فنه . وهو أقرب المؤلفين إلى دكنز وله عطف خاص على الفقراء والمشردين والسكران . ولكن عطفه ليس عطف البكاء والحزن وانما هو عطف الحب والضحك والاستهانة بمشقات الفاقة والحرمان

وقد ألف قصصاً عن الزواج والحرب والعقاقير . وهو فيها جميعها ينحو نحو غايتين هما الحرية والتقييد أى الحرية للفرد فى تفكيره وعقائده ومسلكه الشخصى والتقييد للنشاط الاقتصادى الذى يجب أن تقوم به الجماعات دون الأفراد . ونقول بعبارة أخرى أنه يطلب الاشتراكية ولكنه لا يريد أن يتقيد بمذهبها كأنها عقيدة ماركسية لايجوز مخالفتها

ويعد ولا الآن فى أوروبا زعيم التفكير الحر والدعوة إلى البر فى السياسة .

فهو ينتقص الدعوة الوطنية ويدعو إلى العالمية وهو الخصم اللدود الآن لموسوليني يجد المهضومون عنده أبداً صوتاً صارخاً لمكافحة الاستبداد . وقد دعا إلى الجمهورية في إنجلترا مع أن العرش محبوب هناك . وانما دفعه الى ذلك كراهته للميزات الاجتماعية التي تنشأ من الميراث

وأدب ولز مع كل ما ذكرنا ، هو أدب صحفى . فلو اتنا تناولنا كتاباً أو قصة ألّفها قبل عشرين سنة لشعرنا بالقدم والتأخر باديين عليها . فقد ألف مثلاً قصة عن المرأة التي تطلب المساواة بالرجال وحقوق الانتخاب . وكلاهما قد تحقق الآن . فالقصة لا تدلنا في سنة ١٩٣٣ عن حال نعرفه في الوسط الراهن . وألف كتاباً عن مستقبل أمريكا حوالى سنة ١٩٠٣ لو انه قريء الآن لخالف الواقع وله من هذه المؤلفات « الوقتية » عدد كبير نقصت قيمته أو زالت تماماً لأنها كتبت لغير وقتنا فخدمت قراء ذلك الوقت وانتهت عند ذلك . وهى هنا تشبه سائر مؤلفاته الاجتماعية التي تعالج أحوالنا الحاضرة فان قيمتها سزول ولا يبقى غير دلائلها التاريخية . والدنيا دائبة في التطور ولذلك فان النزعة الصحفية في الكاتب ستعمل لفنائها لا لخلوده . وهذا الفناء هو في الواقع تضحية الكاتب بنفسه من أجل جيله

ولسنا نعى أن كل ما يكتب عن التطور الحاضر من المدنية سزول قيمته الفنية عند ما يتبدل هذا التطور . وانما نعى ان شيئاً كثيراً من قصص ولز ودراساته قد اصطبغ بالصبغة الوقتية « الصحفية » ولذلك ستفقد فيه الأجيال الآتية ما نجده نحن الآن من لدعة الحقائق ومرارة الواقع

وأغلب الظن أن ما سيعيش للأجيال الآتية من ولز هو القصص المسلية مثل كبس أو بيلبي التي لم يؤلفها إلا ليرفه عن نفسه سأم الدرس لهذه القوضى التجارية والصناعية والمالية التي تجتاز بها إنجلترا الآن . وذلك لأن هذه القوضى سزول فلا يعود يبالها جمهور القراء أو يقرأون عنها تفاصيلها المؤلمة في كتب ولز . ولكنهم سيحتاجون الى الضحك بقراءة كبس الفقير الذى

أثرى فجأة فلا يعرف كيف يعيش عيشة الأغنياء أو بقراءة ييلبي الصبي الهارب من أمه الذي يشرّد في الحقول ويشارك رجلاً قد احترّف التشرّد والسرقه فيتعلم منه حرفته ويسرقه هو نفسه ثم يعود الى أمه وقد تعب من قلق العيش في التشرّد ينشد أمن الحياة بين ذراعى الأم

ولكن اذا كانت هذه الكتب « الصحفية » لن تعيش فذلك لأنها أدت مهمتها في الإصلاح الذي نشده مؤلفها . فاذا ماتت هذه الكتب فان موتها برهان نجاحها

وقد سبق أن رأينا مثل ذلك في درامات ابسن . فان « بيت عروس » مثلاً كانت تعد من الدرامات الثائرة لأنها تطلب للمرأة شخصية مستقلة عن الزوج والأولاد . ولكن ثورتها ضعفت لأن الناس قد آمنوا بهذه الافكار للمرأة وصرنا نحن لذلك لانستطرفها ولا نستهل آراءها . وهذا برهان على نجاحها لا على فشلها اذ أن نفوسنا نحن المتمدنين قد أشبعت بها حتى لا نجد فيها جديداً

دراسات ولز الاجتماعية

إذا تحدث الإنسان عن الادب الانجليزي خطرت القصة بالبال ولكن ليس معنى هذا أن القصة هي أحسن ما في الادب الانجليزي وانما معناه أنها تغمره بكثرتها . ففي كل عام يطبع في انجلترا نحو ثلاثة آلاف قصة ٩٩٩ في الالف منها هو مجموعة من الهراء والسخف والعواطف المبهرجة . والادب الانجليزى الآن أوسع من ان ينحصر في القصة أو الدراما لان الاديب يعالج ألوانا وصيفا أخرى تتناول الترجمة أى السيرة التحليلية بل تتناول أحيانا التاريخ . وفي انجلترا لون من ألوان الادب قاما يتقنه غيرهم هو المقالة التى ترجع فى تقاليدها إلى ستيل وأديسون وما كولي . وللمقالة مقام فى انجلترا الآن يزيد على مقام القصة وقد عالجها جميع المجددين والرجعيين مثل شو وولز وتشستر تون وبيلوك

وقد وجد برنارد شو أن الدراما تعجز عن التحليل الكافى الذى يفي بتفاصيل الموضوع . وهو لذلك يزود الدراما التى لا تزيد صفحاتها على خمسين بمقالة قد تبلغ مائة صفحة . ومقالات ولز لا تنقص فى القيمة الفنية عن قصصه . وهل هناك من القصص الحديثة ما يسمو على ما كتبه أندريه مورا أوليتون سترأكى من السير التحليلية ؟

ويبدو أن الادب الانجليزي سيمعن فى الاتجاه الى هذه النواحي وذلك لانه يغزو ميادين جديدة فى الثقافة . فالاديب يكتب الآن فى الاقتصاديات والاجتماعيات وكثيراً ما يجد أن القصة أو الدراما أداة ناقصة لا تفي بغرضه فهو لذلك يعمد الى المقالة فيؤلف أجزاءها حتى تستوى جسماً فنياً يروق الذوق بشكله كما تحرك الذهن بموضوعه

لقد بدأ ولز يؤلف القصص وانتهى بتأليف المقالات والكتب . ولم يكن في ذلك منحدرأ وإنما كان صاعداً . لانه وجد أنه كلما ازداد تثقفاً تناول ذهنه من الموضوعات ماتعجز الفصة عن إيفائه حقه . وقد راجت مؤلفاته — غير القصص — رواجاً عظيماً جداً . فان مؤلفه في التاريخ العام يبيع بمئات الألوف وترجم إلى جميع اللغات الحية تقريباً وتعددت طبعاته فمنها الانيق المخرق الذي يباع بالجنيهات ومنها ما يباع بخمسة قروش فقط

وللمستر ولز كتب عدة في الاشتراكية أو التفكير الاشتراكي الذي يصبغ قصصه أيضاً . وقد عالج الاقتصاديات في كتاب ضخيم لا يصدق من يقرأه أن مؤلفه من أبرع النصاصين في أبلرا الآن . ثم هو قد امتد نشاطه إلى العلم ولذلك حرر كتابا في المعارف العامة بمساعدة ابنه وحفيد هكسلي تناول فيه تلك المعارف التي تؤثر في سعادة الانسان . بل لقد ألف كتابا عن التعليم وصف فيه مدرسة جديدة هي مدرسة أوندن التي ابتكر مديرها ساندرسون نظرا جديداً للتعليم هو أن يكون علمي الغاية . وهذا النظر هو الذي حدا بولز إلى تأليف التاريخ العام

ويعتمد ولز كثيراً على العلم . فاذا تخيل « طوبي » أو مثلاً أعلى للمعيشة كان العلم أساس خياله . وما هو ان ظهرت نظريات فرود في العقل الباطن حتى سارع إلى استغلالها فألف قصة « والد كريستينا » وهو مجنون يعالج بالتحليل النفسي على طريقتي فرود وبويج

ومن أعظم مايؤسف القارئ ويشعره بالمأساة الانسانية هذه الحيرة التي تقلب فيها ولز وهو يحاول ان يؤمن بمبدأ روحاني وراء المادة . فانه بدأ بالاعتقاد أن لله شخصية مستقلة عنا ثم أخذ يستند إلى آراء بونج السيكلوجي السويسري المعروف ويقول ان العقل الباطن عندنا إنما هو عقل النوع البشري كله . وان لهذا العقل الجماعي شخصية مستقلة عنا كأننا يجب أن نؤمن بها

إيماناً ، وأخيراً وبعد التخطيط الطويل انكفأ الى نفسه يتكلم في تواضع كما يتكلم
البشريون . وقد لا يكون هذا عجيباً من رجل نشأ نشأة علمية له كتاب في تشرح
الحيوان وأشرب مبادئ هيرت سبنسر المادية . فانه وان كان قد عرف بعد
ذلك وليم جيمس السيكلوجي الامريكي أول من دعا دعوة روحية عن طريق
السيكلوجية فقد بقى في نفسه الميل الى التحليل العلمى وهذا الميل لم تؤثر فيه
الروحانية الجديدة التى انطلق فيها كل من ادنجتون وجانس بلا سبب معقول
لان كل ما يستندان اليه انما هو شكوك علمية . وكذلك لم يتأثر كما تأثر شو ،
بالمبدأ الحيوى الذى يقول به برجسون

وقد أصبح ولز كتلة عقائد . فان آراء الشباب التى كان يتبسط في شرحها
في مقالاته وقصصه أصبحت بعد ان بلغ الخامسة والستين من عمره عقائد جامدة .
فهو اشتراكي يطعن من آن لآخر على ماركس زعيم الاشتراكية . وكأنه
بذلك يريد ان يثبت استقلاله . وهو عالمي يطعن في الوطنية ولكنه لا يكف
أيضا عن الطعن في عصبة الامم مع أنها بذرة العالمية . ثم هو مع هذا يريد
حضارة غربية قائمة على الآلات الضخمة التى تزيد فراغ الناس . ويريد ديانة
بشرية قوامها قصة التطور . ويريد نظاما علميا للحكومة بحيث يصبح تنظيف
الشارع وبناء المنزل واطعام الاطفال وتعليمهم بل استنتاجهم من مهماتها
الاولى

وإذا أردنا أن نقابل بين شو وولز أمكننا أن نقول ان ذهن شو هو ذهن
التحليل والنقد والهدم بينما ذهن ولز يتجه نحو التأليف والبناء

ويعيش ولز في الحضارة القائمة الآن وهو يعد الناس لحضارة قادمة . فهو
أكثر الكتاب شعوراً بأن أوروبا تنتقل الى النظام الاشتراكي القريب . وهو
يطالب المعلمين والكتاب أن يعدوا الناس لهذا الانتقال . ثم هو يرى الخطر
العظيم من التهاون في فهم هذه الحقيقة لان آلات التدمير أتقنت اتقاناً فظيماً
فاذا تركنا السياسة الحاضرة تجرى مجراها والتنافس التجارى يسير سيره الطبيعى

لم يكن مفر من حرب كبرى أخرى قد تقضى على الحضارة . ومع أن الاشتراكيين الانجليز يقبلون الملكية القائمة فإن ولا يلج في طلب الجمهورية ويصرح بذلك في الصحف وغايته اعداد الامة الانجليزية للنظام الصناعى الجديد وهو نظام اشتراكى . ثم هو لا يعرف التسوية مع خصومه . فهو خصم صريح للبابوية والفاشية كما هو خصم للملكية والوطنية والحرب والتعصب القومي أو الدينى . ثم هو بزعمه العلمية لا يرضى النظم البرلمانية الحاضرة لأنه يعتقد أن أحوالنا الاقتصادية قد بلغت من التعقد بحيث نحتاج إلى خبراء أى علماء فى الصناعات والعلوم والاقتصاديات وأن الاعتماد الآن فى ادارة شئون الامة على أيدي السياسيين انما هو بمثابة لعب الاطفال بالنار . ويرى فى هذه الازمة القائمة البرهان على ذلك

ولز بين الوطنية والعالمية

ليس في العالم خصم للوطنية يدعو إلى العالمية مثل ولز . وهو على هذه الحال منذ نحو ثلاثين سنة لم يتغير حتى مدة الحرب فانه هو الذي وضع عبارة « الحرب لانتهاء الحرب » أى أنه كان يدعو الانجليز إلى التجند وقتال الألمان لكي تكون هذه الحرب الكبرى نهاية الحروب بأقامة هيئة تقضى القضاء النافذ في الخلافات التي تقوم بين الأمم فلا يحق لدولة أن تعلن حرباً على دولة أخرى بل لا يجوز لدولة أن تجند جيشاً

وفي هذا العام ألقى خطبة في مدرسة الأحرار الصيفية في اكسفورد فدعا إلى إنشاء عصبة من الفاشيين الأحرار لكي يقاوموا الفاشيين الذين يدعون إلى الوطنية الحادة مثل اتباع موسوليني في إيطاليا أو اتباع هتلر في ألمانيا فالرجل لم يتغير عن دعوته الأولى التي دعا إليها حيّوا سنة ١٩٠٢ وهو في هذه الدعوة يرث الرسالة من فولتير وروسو وسائر البشريين من الانجليز والفرنسيين . وقد ألف كتابه « خلاصة التاريخ » وهو ينظر إلى العالم كأنه أمة واحدة والكرة الأرضية عنده هي « القرية الكبرى » لجميع البشر . ولذلك أيضاً طعن في كل من الاسكندر و نابليون لانهما من رجال الحرب والفتح . وترتيب هذا الكتاب هو بدعة في تأليف التاريخ فانك لا تجد فيه تاريخاً لكل أمة على حدها وإنما تجد موكباً ساراً يذك على التقدم البشري بصرف النظر عن الأمة التي ينتسب إليها هذا التقدم

ومنذ ثلاثين سنة أيضاً اقترح تأليف حزب أو عصبة يكون أعضاؤها من جميع الأمم يسرون فيما سماه « مؤامرة مكشوفة » غايتها هدم الوطنية والاتجاه بالناس إلى الحرية والعلم والعالمية أى أن يكون العالم كله أمة واحدة لها حكومة مركزية تتولى التعليم والنظام المالي . وهذه الهيئة يجب أن تؤلف للعالم موسوعة كبيرة تترجم إلى جميع اللغات فتكون دستور الثقافة ويعاد تنقيحها من آن لآخر لكي تتجدد معارفها . فاذا قرأها جميع الناس في مختلف الأمم اتفقت

أراؤهم السياسية فلا يكون تعصب يبعث على التناحر والحروب
 ثم يجب أن تأخذ هذه الهيئة نظام التعليم أيضاً فتمنع مثلاً تدريس التاريخ
 إذا كان يبعث في التلاميذ روحاً وطنياً كما يجب أن يستوى جميع التلاميذ في العالم
 في الحصول على أوفى قسط من التربية لأن الجهل الذي ينتشأ في أمة ما من إهمال
 التعليم قد يؤدي إلى خطر كبير على سائر الأمم . بل هو يرى أن تقوم هذه
 الهيئة بأيجاد دين عام أو بعبارة أصح مزاج ديني عام لجميع الأمم بحيث لا يؤدي
 التعصب الديني في واحدة منها إلى إيقاع خطر بالأمن العالمي
 ثم هو يرى أن تحقيق هذا النظام العالمي لا يمكن إلا مع إنشاء نقد عالمي
 واحد يتعامل به جميع البشر . فلا بد إذن من إنشاء بنك للعالم يتولى إصدار
 النقود سواء أكانت من ورق أو من معدن

وفي ولز خصلتان تتضحان في جميع مؤلفاته أحدهما نشاط في نفسه يدفعه إلى
 الإعجاب بنشاط الآخرين ولو كانوا من خصومه . والثانية دأبه في التنظيم والترتيب
 فهو يدعو إلى إنشاء عصبة من الشبان يتولون هيئة الأذهان واعداد
 العالم للدولة العالمية التي ينشدها . وهو هنا يضرب المثل بالفتيان الكشافة
 وفتيان الفاشيين مع انه يكره نزعاتهم الحربية الوطنية . ثم هو لا يكف عن التنظيم .
 فانه يؤلف القصة ويتعال بما فيها من حب واغراء جنسي لكي يشرح نظاما من
 تأليف موسوعة أو موسوعات مختلفة

وقد استهوت هذه النزعة الولزية عدداً كبيراً من المفكرين في كل أمة .
 ومع أن الآمال التي عقدت بعصبة الأمم خابت وعرف الناس أن مبادئ
 الرئيس ولسون ضرب بها عرض الحائط وأن الانتداب هو الاستعمار لا يختلف
 منه إلا في الاسم فإن كثيراً من التأييد الذي تلقاه هذه العصبة يرجع الى هذه
 النزعة التي بعثها ولز والتي تجعل الناس يتشبثون بعلايات العالمية أو الأمية
 ويرجون من العصبة المريضة أن تعود فتنهض وتكون بذرة لحكومة قوية
 تدبر مصالح العالم العامة

ولا يفتأ ولز يجمع الشواهد والبراهين التي يقصد منها الى اقناع القاريء
 بأن خياله يمكن أن يتحقق . فهو يذكر لك « اتفاق البريد » بين جميع الأمم
 وانه نظام عالمي . ويذكر لك المعهد الأسمى لاحتصاء القمح في رومية . فان هذا

المعهد قد أنشأه رجل يهودى أمريكى وحبس عليه أوقافاً . وله مندوبون فى جميع أنحاء العالم يجمعون الإحصاءات التى تذاع على العالم عن حاصلات القمح لكى تعرف الأمم مقدار القمح ونحناط للمستقبل . وليس شك أن هذا المعهد قد أفاد العالم وأنه يمكن التوسع فى هذه الخطة . فزداد مثلاً أعمال هذا المعهد حتى يستطيع أن يخرج إحصاء كل عام عن جميع الحاصلات الزراعية والمعدنية . ومن مصلحة جميع الأمم أن تقف على هذا الإحصاء الدقيق لأن جهلها قد يؤدى بها الى نتائج اقتصادية توقعها فى خيائى كبرى

وهذه العالمية هي حلم فقط لأن النزعة التى تسود العالم السياسى الآن هي النزعة الوطنية . ولذلك نجد جميع الأمم تسارع الى إقامة السدود الجمركية وتدعو الى الوطنية الاقتصادية . وفى الوقت الذى يدعو فيه ولا هذه الدعوة العالمية يدعو فيه ولي عهد بريطانيا دعوة وطنية بنداثة المشهور : « اشتروا البضائع البريطانية »

والتأمل لاحوال العالم فى ضوء هذه الازمة الحاضرة وأمام تاريخ الاستعمار والأسباب الرئيسية للحروب وخاصة بعد أن أخذت مدرسة الاقتصاد الجديدة بقيادة الميجر دوجلاس تشرح نظرياتها وتبسطها بسطاً وافياً لا يمكنه إلا أن يعتقد بأن التنافس فى التجارة الخارجية هو السبب الأساسى للاستعمار . واذن فكل ما يعمل لنقص التجارة الخارجية يعمل أيضاً لتخفيف الاستعمار ويمنع فى الوقت نفسه أقوى البواعث على الحرب . فان القائمين بالعالمية يقولون بالغاء الحواجز الجمركية وأن تختص كل أمة بالصناعة التى يليق لها مناخها ثم تبادل الأمم الأخرى ما تصنعه من المصنوعات أو ما تنتجه من الحاصلات . وبديهي أن من يقول بحكومة عالمية يجب أن يقول بحرية التجارة على أوسع معانيها

ولكن حرية التجارة تبعث على المزاومة التجارية والسعى للاستيلاء على أسواق العالم . وقد حاربت بريطانيا الصين لكى تجبرها على شراء الأفيوز الهندي مع أن الصين كانت قد منعت الاتجار به . والسبب الأساسى للحرب الكبرى هو هذا السباق الى أسواق العالم بين بريطانيا وألمانيا . والاساطيل لا يقصد منها حماية الوطن وإنما يقصد منها حماية التجارة الخارجية . وأكبر

تعتمد على حرية التجارة أو كانت كذلك الى عهد قريب هي بريطانيا ولذلك كانت أيضاً صاحبة أكبر الأساطيل

وكذلك حرية التجارة هي التي تبعت على الاستعمار . فان اختصاص بعض الأمم مثل ألمانيا وبريطانيا بالصناعات قد جعلها تحتاج الى المواد الخام بمقادير كبيرة . وكان من احتياجهما هذا أن استولت على الأقطار التي تنتج القطن والبتزول والحاصلات الزراعية . بل لقد أثبت التاريخ أن الأمم الصناعية كثيراً ما أجبرت مستعمراتها والأمم الصغيرة على الاقتراض منها لكي تبقى مرتبطة على الدوام بها بل لكي تبقى مستعبدة لها

فال حرب والاستعمار كلاهما نشأ بصورته المفرعة الحاضرة من حرية التجارة واختصاص بعض الأمم بالصناعات دون البعض والرغبة الحارة في غزو الأسواق . واذن يكون العلاج لهذه الحال الرجوع الى تقييد التجارة الخارجية وتقليلها بأقامة حواجز جمركية لكل أمة بحيث يستوعب الاستهلاك الداخلي فيها نحو ٩٠ في المائة من حاصلاتها ومضروعاتها فلا يبقى للتبادل التجاري مع الأمم الأخرى سوى نحو ١٠ في المائة . وهذا مقدار ضئيل لا يبعث أمة على الحرب أو الاستعمار

ثم أن للحواجز الجمركية قيمة أخرى اذ هي تزيد ثقافة الأمة العلمية . فان الصناعات الآن تعتمد على العلم ومن مصلحة كل أمة أن تثقف هذه الثقافة فتحمي صناعاتها من الواردات الأجنبية وتباشر بنفسها صنع المصنوعات . وهذا خير لها حتى لو كان يمكنها أن تحصل على هذه المصنوعات من الاقطار الأجنبية بما هو دون أثمانها في بلادها . لان هذا الفرق هو ثمن ثقافتها العلمية الصناعية

فال مذهب العلمى الذى يقول به هـ . ج . ولز خيال جميل . ولكن ظروفنا الحاضرة والازمة القائمة الآن تلهمنا طريقاً آخر لتوقي الحروب والكف عن الاستعمار فعنى به الدعوة الى الوطنية الاقتصادية بتنشئة الصناعات وحمايتها بالحواجز الجمركية وبهذه الوطنية الاقتصادية ستمنع المزاومة التجارية فى أسواق العالم . وبامتناع هذه المزاومة تقل الحروب كما تقل الحاجة الى الاستعمار

جالزورثى

لما منحت جائزة نوبل لجالزورثى دهش جمهور الادباء أو قراء الادب . فان اختيار هذا الاديب الانجليزى وتمييزه من بين جميع أدباء العالم بهذه الجائزة السنية يدل على ان المستوى الادبى فى العالم قد انخفض قليلا . فان جالزورثى أديب « أنجليزى » يكتب للانجليز ولذلك فان بصره وبصيرته محدودان بالبيئة الانجليزية وقلمها تجد له قراء فى القارة الاوربية أو فى القارة الامريكية

والاديب العظيم الان لا يمتنع بارتقاء عرش الادب فى بلاده فقط لانه هو بطبيعة العلاقات البشرية الان يسموالى الامبراطورية لالى الملوكية فى الادب . فنحن فى عصر قد صغر اليه العالم وأصبح على حد قول ولز « قريننا الكبرى » تضطربنا الصحف فى الصباح الى ان نذكر فى الاستعمار الياباني فى منشوريا وتضطربنا الازمة فى بلادنا الى ان ندرس عواملها فى انجلترا والشرق الاقصى . وقد أصبح غاندى كانه زعيم وطنى لكل بلاد منكوبة بالاستعمار . وأصبحت البطالة والاجور والاراء هما تدرس فى المانيا على ضوء الاحوال الجديدة فى الولايات المتحدة . فالامم الان تتفاعل كما تتفاعل العناصر فى المعمل الكيماوى . ففي افريقيا الجنوبية يؤسس غاندى « مزرعة تولستوى » وأناطول فرانس يمنح ثمانية آلاف من الجنيهات (وهو مقدار جائزة نوبل) لتخفيف العاقة فى روسيا ، وبرنارد شو يتكلم عن دنشواى كما يتكلم عنها المصرى الوطنى . ورومان رولان يغادر بلاده لانه ينكر عليها الحرب مع المانيا . الخ

وفى مثل هذه الظروف العالمية لا يمكن الانسان ان يعد أدبيا فى الطبقة الاولى مالم تتجاوز همومه وطنه الى البشر كافة . لان الادب كالدين يجب ان يتجاوز الحدود الوطنية . ولو ان جائزة نوبل أعطيت لوز لسان الاجماع على سداد هذا العمل عاما من جميع الامم . والفرق بين ولز وجالزورثى هو ان الاول

يخدم العالم ويدرسه ويشغل بهوميه في الثقافة والاخلاق بينما الثاني يقصر
درسه على انجلترا

ولا يناقض هذا الكلام ان النزعة الاقتصادية الحاضرة تتجه نحو الوطنية
لان المقصود منها هو توفير الثروة والثقافة العالمية . وإذا اتفق في المستقبل
توفيرها بدون هذه النزعة فان الاستغناء عنها لن يكون شاقا

ونحن عند ما نفحص عن أديب انجليزي ونتحرى بواعثه لا نستطيع أن
نهمل رأيه عن الاستعمار البريطاني لان هذا الاستعمار ينكب العالم نكبة واضحة
كألا نستطيع أن نهمل رأى الاديب المصرى عن المرأة أو الفلاح . وإذا
نحن الفينا فيه اهالا أو نقصا في درس هذا الموضوع جاز لنا أن نحكم على ضميره
بالنقص . فان أديبا يرى دولته تملأ اقطار العالم بالولاة والمحافظين والمندوبين
السامين لكي يحكموها على الرغم منها ويقهروا فيها الحرية ويعطلوا فيها الثقافة
ويحبسوا فيها زعيما من زعماء الانسانية مثل غاندى لجدير بأن يتهم في ضميره
الادبي إذا سكت . وجازورثى لم يقل كلمة في استنكار الاستعمار البريطاني

ولا يذكر جالزورثى حتى يخطر بالبال ارنولد بنيت . فانهما يشتركان في درس
الطبقة الانجليزية المتوسطة ولكن جالزورثى يدرسها ويستنكر اكباها على
جمع المال وإهمال الفنون وجود الضمير بينما الثاني لا يرى فيها إلا كل ما يجب
ويستحق الإعجاب . ثم ان ارنولد بنيت يعد من أبناء القرن التاسع عشر ينزع الى
الانفرادية ويؤمن بهربرت سبنسر في المادية العلمية والنزاع الاقتصادي ويسلم
بفضيلة الاعتماد على النفس في الوسط الصناعى الحاضر ويكبر من شأن النجاح
وله كتب سخيفة في هذا الموضوع

ولكن جالزورثى أعمق نظرا منه إذ هو يستطيع أن يرى من خلال
النجاح المالى والاجتماعى خلا في البيئة ونقصا في الاخلاق . وهو من أبناء
القرن العشرين ينزع نحو الاشتراكية وان كان لا يصرح بها . وقد رفض
لقب « سير » وعطف على المظلومين سواء أكان الظلم اجتماعيا أم

اقتصادياً . وهو من حيث الفن يعد من أبرع الادباء سواء أكان هذا في القصة أم في الدراما

وهو عندما يكتب يقنع بالتقرير والتصوير ولا يقترح علاجاً . فقد وصف آلام المسجونين في دراما « العدالة » فكان وصفه من الدقة والفظاعة بحيث استجابت له الحكومة في اصلاح السجون ولكنها لم تصلح القانون الذي يبعث بالمتكويين إلى هذه السجون . ومن أعظم مشاهد هذه الدراما مسجون قد ضاق بحبسه في الخلية أي الرزاةة فأفرج عن ضيقه بثورة عصبية إذا اندفع يحبط الحيطان ويضرب الباب

ثم هو يلزم الحقائق فلا يزوق ولا يتخيل غير الواقع . فهذه « ايرين » مثلاً فتاة جميلة فقيرة قد تزوجت رجلاً غنياً من تلك الطبقة التي تنتمى عادة إلى حزب المحافظين وتؤمن بعبء الرجل الأبيض وتعرف الدين في الكنيسة فقط ويوم الاحد فقط أما سائر الاسبوع فلا تعرف غير التجارة الحرة والمزاحمة التي تجرى على سنة الحرب كل شيء جائز فيها . وهي تؤثت البيت بأنخر الاثاث ولا تعرف من الفنون غير الصور الغالية في الثمن

ولكن ايرين تسأم هذا الزوج وتهجره وتحب مهندساً فقيراً . ثم تضطرب الاحوال المالية لهذا المهندس فينتحر . ثم تعود ايرين الفقيرة إلى زوجها الغني وهي صاغرة

ويسكت جالزورثي فلا يعط القارىء ولا يلوم الزوج ولا يعلق على هذه الحال أى تعليق لانه يقنع منك بهذا التهنيد الذي يضيق به صدرك عن هذه عن هذه الحال المؤلمة . وانت عند ما تقرأ مثل هذه القصة تحب جالزورثي

وقد مات صغيراً في العام الماضي ولما يبلغ الخامسة والستين . ووفاته في هذه السن مأساة لأن الآمال كانت معلقة به بعد أن استضاءت بصيرته بالحرب والازمة

رجال الذهن في إنجلترا

ليس التجديد مقصوراً على رجال الادب من مؤلفي الدرامات وممارسي الفنون الجميلة . وان كان هؤلاء أقرب إلى الجمهور وأعمق أثراً فيه من غيرهم لأنهم يتصلون بعامة و خاصته بما يؤلفونه من قصص أو يعرضونه من درامات أو حتى بما ينحتونه من تماثيل أو يرسمونه من صور . فان هناك هيئات أخرى تعمل للتجديد . وقد تكون هذه الهيئات جمعيات ترصد نفسها لبث دعاية لآراء ثقافية خاصة أو قد تكون مجلات تعيش بتجهد محرريها وعطف طبقة من رجال الذهن عليها أو قد تكون قائمة على أيدي أدباء أو علماء يؤلفون الكتب في نزعات جديدة في الآراء الاجتماعية أو العلمية أو الادبية

فهناك مثلاً جمعية تدعى « جمعية العقلين » قد طبعت ونشرت إلى الآن ملايين من المجلدات من الكتب التي تدعو إلى التفكير الحر والاعتماد على الرأي العلمي دون العقيدة الدينية . وقد كان لهذه الجمعية أعظم الأثر في تطور الافكار بين شباب الانجليز بل شيوخهم . وهناك جمعية أخرى تدعو إلى الفلسفة الوضعية التي يقول بها كونت الفيلسوف الفرنسي . وقد بقيت أكثر من ثلاثين سنة وهي تصدر مجلة كان يكتب فيها الاديب الكبير فردريك هريسون ويدعو فيها إلى نوع من « البشرية » هو وسط بين الرأي والعقيدة . ثم هناك إلى هذه الجمعيات ، رجال الذهن الذين ينتمون إلى العلم أو الدين أو الاجتماع فيدأون في نشر آرائهم التي استنبطوها من دراساتهم . وهم يعملون لنشرها بين الجمهور بمختلف المؤلفات . وأعظم مثال على هؤلاء ذلك اللورد المعجيب الذي يبهز الناس بذكائه وثقافته ويهدم ما يحترمون من عقائد نعى به « المستر » برتراند روسل . فان القاريء لمؤلفاته يشعر أن برنارد شو ، بالنسبة

اليه ، يعد من الجامدين في أشياء كثيرة . إذ هو يكتب عن الامبراطورية البريطانية والزواج والصناعة والدين بروح جرىء . ولو أن أحد المفكرين في القرون الوسطى نسب اليه كتاب واحد من مؤلفاته لكان كافياً لاحتراقه . وهو عالم ينظر إلى الاجتماع نظرة مادية محضة ثم هو مخلص أشد الاخلاص في تفكيره إذ هو لا يعرف المداعبة عن الصوفية العالمية التي يحرق فيها العلماء مثل جانس أو ادينجتون ولا هو يستطيع أن يداهن الوطنيين الانجليز بكلمة مدح عن تاريخهم أو امبراطوريتهم إذ هو يصرح بأن هذه الامبراطورية تعوق التقدم في العالم

ثم هناك مفكر آخر من رجال الذهن هو هافلوك أليس . فانه اختص منذ أكثر من ثلاثين سنة بدرس التناسليات فاشع علي هذا الموضوع فيضاً من الضوء الذي استخلصه من ثقافته العالمية . وهو لا يستطيع الوصول إلى الجمهور ولكنه يهيء الحميرة للخاصة من الادباء والسحبين الذين يعلمون هذا الجمهور . ولا يمكن انساناً يقرأ مؤلفات هذا الرجل المثقف إلا ويتأثر بها

وكل من برتراند روسل وهافلوك أليس يدعو إلى التمتع بالحياة والى ان يعيش الانسان ملء حياته فلا يقتصر على نفسه ولا ينكر عليها لذة الذهن أو لذة المواطن . وكل منهما يعد من هذه الناحية الوارث الشرعى لدعوة النهضة الاوربية في القرن الخامس عشر . فان هذه النهضة هي في لبابها وصميم الغاية التي نشدتها دعوة الي التمتع بالدنيا (على حساب الآخرة) والا كبار من شأن الجسم (على حساب الروح) ومن ذلك العصر الى الآن والتجديد في أوربا سواء أكان في الادب أو الفنون يتجه هذا الاتجاه . وعلينا نحن « الشرقيين » أن نعرف ذلك ونذكره حق الادراك كلما أردنا أن ندرس ثقافة أوربا أو مزاجها الادبي أو المقصود من حركاتها التجديدية وقد نكره نحن هذه النزعات وليس شك أن فيها كثيراً مما يكره ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا عن حقيقتها ومن رجال الذهن الذين أثروا أثراً غير صغير في التفكير الانجليزى

القسيس انج . فان هذا القسيس يرتأى من الآراء ما لو أعلن هنا في بلادنا لعد الحاداً أو كفراً ولكنه مع ذلك يحتفظ بمنصبه في الكنيسة الانجليزية وهو منصب سام . وهذا برهان على مدى الحرية التي يتمتع بها رجال الدين في إنجلترا . ولم يغب عن ذهننا تلك الثورة الصغيرة التي قام بها أسقف برمنجهام (وهو دكتور في العلوم) حين صرح بأن القربان المقدس في الكنيسة لا يمكن أحداً أن يثبت قداسه بالتحليل الكيماوي . ولا يزال هذا الرجل في منصبه مع ذلك لا يجد الاحترام فقط بل يجد العطف من الجمهور

والقسيس انج وأسقف برمنجهام كلاهما يعمل للتجديد في الدين وينتشر منهما روح الحرية الفكرية إلى الصحف والقصص والخطابة . ومن هذه الوسائل الاخيرة ما يبلغ الجمهور فيؤثر فيه . ولكن ذكرنا للقسيس انج ولبرتراند رسل في فصل واحد قد يوهم القارئ بالاشتراك في الآراء . ولكن الحقيقة ان الفرق بينهما شاسع وانما هما يشتركان في النزعة إذ كلاهما مجدد في ميدانه . وميدان الاول هو الاجتماع وهو ميدان حر وميدان الثاني هو الدين وهو كثير العقبات والقيود

وللمفكرين الاوربيين أثر آخر في تجديد الفكر الانجليزي لا يقل عن أثر المفكرين من الانجليز أنفسهم . فان فروود وبرغسون ونيثشه وسبنجلر وكوهلر تقرأ مؤلفاتهم بشراهة بل تؤسس المجلات لدرس مذاهبهم

وعلى ذكر المجلات نقول انها في إنجلترا تزود المفكرين بالمواد الخام للتجديد . وليس في العالم شيء يعمل للتثقيف بين الجمهور مثل المجلات الانجليزية الاسبوعية . فانها وان كان عدد قرائها قليلا تعيش بما تنشر على الناس من آراء سياسية واجتماعية وأدبية . وقد تجد في إنجلترا جريدة احدى أي تصدر يوم الاحد ولها من القراء مليونان أو ثلاثة ملايين . ومع ذلك فانها لا قيمة لها أصلا عند ما تبدى رأيا في السياسة أو الادب بينا العالم السياسي يهتز اهتزازاً إذا

كتبت مجلة اسبكتاتور أو نيوسيتسمان أو ويك اند مقالاً عن أحد الأحزاب أو إحدى الخطط . وقد لا يزيد قراء إحدى هذه المجلات على عشرة آلاف . ولهذه المجلات الأسبوعية تأثير كبير لأن قراءها صفوة الأمة ولهم النفوذ والسلطان في تقرير الخطط وتكوين الرأي العام وتسويغ البدع أو استنكارها . وقد كانت مجلة النيشن عقب الحرب قوة كبيرة في يد محرريها العظيم ماسنجهام . فانه هو الذي أكسب التفكير السياسي في إنجلترا روح التسامح نحو الاشتراكية إذ كان هو نفسه من الأحرار الذين يميلون إلى حزب العمال . وهناك مجلات أخرى هي أدوات التجديد في جميع مناحي الحياة . ونحن نضع في المقدمة المجلة التي يحررها الدكتور جاكس نغني بها « هبرت جورنال » فانها مجلة دينية ولكنها تكتب في البوذية والإسلام والأفلاطونية والمادية فتملاً أذهان المفكرين ذخيرة للتجديد الديني . وهناك مجلة « نيوانجلش ريفيو » التي تسكاد تقصر نفسها على الدعوة إلى التجديد الاقتصادي بزيادة الاستهلاك على طريقة دوجلاس . ومحرريها أوراج رجل معروف منذ ثلاثين سنة يدعو إلى نيتشه والأدب الجديد . ثم هناك مجلات صغرى تلتف حولها جماعات خاصة من الأدباء وتنزع نزعات خاصة مثل « كريتيرون » و « أدلني » فان جميع الثائرين في الأدب الإنجليزي رأوا النور عقب ميلادهم في عالم الأدب في صفحاتها وهذه المجلات ، ثم أولئك المفكرين الذين ذكرنا بعضهم ، هم الذين يمدون الأدب الإنجليزي الحديث بوسائل التجديد واليهم يرجع الفضل في النزعات الجديدة التي نجدها في ألدوس هوكسلي ولورنس وجويس . لأنهم يقدمون المواد الخام التي يتربى بها الأدباء يأخذها تبراً مخلوطاً مشوشاً فيصهرها في ذهنه ويخرجها ذهباً ناصعاً في قصة أو درامة تستعذب وتستجمل . ولنا نقصد من هذا إلى أن الأدباء لا يبحثون بنفسه في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها أو أنه لا يكتسب اختباراته منها مباشرة وإنما يريد أن يقول إن أدباء الإنجليز المجددين تحيط بهم بيئة ثقافية تعينهم على التفكير والتجديد بل تحفزهم اليهما

التأثرو

نقصد بالتأثرين الذين جاءوا عقب المجددين وتتمذوا لهم ولكنهم خطوا خطوة أخرى أبعد منهم وفتحوا ميادين جديدة حاول أولئك المجددون أن يفتحوها . ولكنهم لم يستطيعوا لان الزمن لم يكن قد هيا لهم بعد أسباب الفتح

وهؤلاء التأثرون جاءوا امدة الحرب وعقب الحرب ورأوا المدنية تضرى وتستوحش أمام اعينهم وتهدم ماتعاموه من اخلاق أو اديان . فخرجوا منها وقد انكروا كل شىء تقريبا وشرع كل منهم يؤسس لنفسه إيمانا جديداً يخلص له ويدعو اليه . ولم يعد الادب عند هؤلاء التأثرين صنعة تحتاج الى الدرس والتأنق وتوخى ما يحبه الجمهور القاريء والوقوف على اسرار الفنون وغايتها وانما هو عندهم بحث عن أرشد الطرق لان نعيش فى هناء على هذه الارض . وهم لهذه الغاية يعتمدون على أنفسهم ويكتبون تراجمهم أو تراجم اصدقائهم ، الذين عرفوهم ، فى صيغة القصة ولا يبالون بأية لغة يكتبون . ولذلك تجد ماشئت من الخروج على القواعد أى قواعد اللغة وعرف القصة وأسلوب الرواية . وأنت اذا لم تكن صبوراً فانك تطرح الكتاب بعد فصل أو فصلين ولهذا أسباب كثيرة أولها وأهمها أن هؤلاء التأثرين لا يريدون التسامح فى قليل أو كثير من الخيال . فهم يقررون الواقع ويريدون مواجهة الحياة بكل ما فيها من خير أو شر . فليس يبالى احدهم ان يقول لك ان فى الحياة اقداراً وان الناس يبنون المراحىض فى بيوتهم . ثم اذا عبت عليهم تفكك القصة أو تشتت حوادثها أو انها غير مهذبة فى صيغتها اجابوك بأن الحياة كذلك ليست منسجمة ولا مهذبة . وانت اذا وقفت لحظة لى تفحص عن خواطرك وافكارك لا لفتيتها فى غاية الشعب والتشتت . ولن تجد صورة مهذبة لاي حادثة الا فى

القصص الخيالية . وهم لا يريدون ان يرووا قصصا عذبة لذيدة وانما يريدون ان يترجموا الحياة الحقيقية كما يعيشونها هم أو كما يرونها في غيرهم بدون تحلية أو تزويق

ويمكن أن نلخص العوامل التي أثرت فيهم بما يلي :

١ — ان الحرب فتقت أذانهم للشك في كل شيء حين رأوا مبادئ الاخلاق التي تعلموها لا قيمة لها أصلا

٢ — ان الامراض العصبية والنفسية التي نشأت من الحرب قد أشاعت نظريات العقل الباطن على طريقة فروود وبعثت حرية جديدة في بحث البواعث التي تبعث على التفكير وغاية الحياة

٣ — ان هذه النظريات نفسها اكدت ضرورة التفريج عن الغريزة الجنسية والكف عن الكبت وقمع الشهوات

وهم بكلمة مختصرة قد تركوا « الادب » واتمسوا الحياة . واذا كانوا يعتمدون على القصة فذلك لانها تتسع لالوان مختلفة من العيش والنظر . وإلا فهم كثيرا ما يعتمدون الى المبالاة . وسواء عندهم هذه أو تلك أداة لبسط آرائهم في الدنيا والانسان

وهؤلاء الثائرون كثيرون الآن في انجلترا منهم من توفى الى فهمه ومنهم من يعتاص ويستوعر . وسنتكلم عن أشهرهم وهم لورنس وجويس وهو كسلى . فاما الاول فقد مات منذ سنتين . وهو في زعم كثيرين رأس الثائرين وبداية العهد الجديد للادب الانجليزى . وهناك من يضع جويس على رأسهم . وكل من هؤلاء يختلف من الآخرين في الطريقة والغاية . ولكنهم جميعا سواء في الدعوة الى التمتع بالحياة بالذهن أو بالغريزة

وفي كل من لورنس وجويس نجد التفاتا كبيرا الى اللذة الجنسية وبحثا مستفيضا فيها كان من أثره أن منعت الحكومة بعض مؤلفاتهم من التداول . وهما كلاهما ينغمسان في اعماق العقل الباطن حتى ليشعر القارئ لهما أنه قد انتقل

من قراءة القصة الى قراءة حادثة معينة من تلك الحوادث التي يذكرها فروود في بعض محاضراته . وقد كانت ماري ستوبس تعد قبل الحرب من الغلاة في الدعوة الى الصراحة في المسائل الجنسية ولكنها الآن لاتعد شيئاً أمام هؤلاء الثائرين كما ان دعوة برناردشو الى مواجهة الحياة والنزول على حقائقها دون بهارجها وتزاويقها قد عمل بها وغلا فيها الدوس هو كسلي

والدوس هو كسلي هو رجل الذهن والعلم وهو أقرب الى الازل منه الى الثائرين .
وهو يبتعد عن فروود والتحليل النفسي بقدر ما يقترب من واطسون في السيكلوجية السلوكية . وهو يستطيع أن يهرب من الحياة بقصة خيالية عن حالة الناس على الارض بعد مئات السنين

أما نورنس وجويس فلا يعرفان غير الواقع وكلاهما يجنح الى الغريزة ويضعها فوق العقل . وفي كل من هؤلاء الثائرين فحاجة هي علامة المبتدىء الذي لم ينضج

ويجدر بنا هنا أن نعرض موكب الادب الانجليزي منذ العصر الفكتوري الى الآن لئري هل هؤلاء الثائرون يقفون في طرف هذا الموكب موقفاً منطقياً أم لا

فان العصر الفكتوري اتسم بالجمود وانساق في ادبه الى الخيال والايهام كما انساق في اجتماعه الى الغش والنفاق . وكلتا النزعتين ترجعان الى أصل هو الصدود عن الحقائق الواقعة وكرهه الحياة كما هي وتوهمها شيئاً آخر اسمى واجل واقوم مما هي في الحقيقة . وكما كان هناك عرف اجتماعي وعادات فاشية تكسو الحياة بالنفاق كذلك كان في الادب عرف آخر يدعو المؤلف الى أن يتوهم الحياة وكأن ليس فيها غير ما يهواه كل الناس من حسن وسمو وجمال

وقد صمد المجددون لهذا النفاق يكشفونه . ولما عرفوا ان النفاق الاجتماعي هو الاصل للنفاق الادبي عمدوا الى الاجتماع يمزقونه تمزيقاً . وهذه هي مهمة برناردشو . وظهر « المنحطون » فدعوا في صراحة وجراًة

إلى أن التمتع بالذات والشهوات ليس عيباً . وقد تورطوا بهذه الدعوة في بعض الشذوذ

وبعد هؤلاء وهؤلاء جاء الثائرون وقد اصطلوا نار الحرب الكبرى فعرفوا من نفاق المدنية في أربع سنوات ما لم يعرفه أسلافهم في سبعين سنة من العصر الفكتوري . فكانت ثورتهم أشد من ثورة المجدين

وليست الثورة مقصورة عليهم وحدهم فإن الصدود عن الوهم والخيال عظيم الآن في إنجلترا حيث تروج كتب التراجم للعظماء وأشباه العظماء كما تروج التواريخ رواجاً عظيماً . وهذا يدل على أن الجمهور نفسه يريد أن يقرأ قصصاً حقيقية عن أشخاص حقيقيين ولا يريدوها أو خيالاً . وإذا كان برناردشو قد قصر الأدب على خدمة الاجتماع فإن هؤلاء الثائرين لا ينشدون من الأدب سوى غاية واحدة هي البحث عن الطرق التي نستطيع بها أن نعيش أمتع عيش والذو . فهم يرون أننا شغلنا عن لذة الحياة بنظريات وواجبات غريبة في حين أن غايتنا الأولى يجب ألا تكون الفلسفة أو العلم أو خدمة البشر أو تحصيل العيش وإنما الغاية الأولى والوحيدة التمتع بالحياة . وماعدا ذلك فخواش وزوائد

لورنس . أحمد الناصر

مات لورنس منذ بضع سنوات فشرع الكتاب يدرسه وينفحصون عن الغاية التي رمي إليها . وكان طول حياته لا يلقى سوى الاستهجان أو الإهمال ، الذي هو عند المؤلفين ، شر من الاستهجان .
وقد نشأ لورنس في بيئة العمال لأن أباه كان فخاماً يشتغل في مناجم الفحم .
ولكن أمه كانت على شيء من الثقيف فوجهت الصبي نحو القراءة والتطلع في الأدب . وما هو أن بلغ سن الشباب حتى كان يحترف التعليم في إحدى المدارس في الريف ويراسل المجلات فيكتب القصص والقصائد والمقالات . وقد مات وهو دون الخامسة والأربعين ولكن الضجة التي أثارت عقب موته لن تموت إذ هي تجد من الانصار والخصوم ما سيبقى على ذكره بالجدال القائم عن مذهبه في الادب الجديد

وقد كان للورنس مذهب يدعو اليه لو أردنا الرجوع لأسبابه لاحتجنا الى شرح طويل . فالتنا نجد فيه مثلاً نزوعاً الى « المنحطين » حين يتكلم عن اللذة الجنسية يذكرنا بأوسكار وايلد وان كان في الوقت سليماً من الشذوذ . كما نجد فيه دعوة الى الحياة واشتهاء الملذات والتجارب والا كبار من شأن الجسم واللحم والدم مع إهمال النفس والاخلاق . وهي دعوة تشبه نزعات النهضة الاوربية مع الزيادة والمبالغة . وهو مع ذلك ينظر للحياة نظراً صوفياً يريد أن يعرف أسرارها ويتذوق أطايبها . وهو في هذا النظر ينتهي ، كما انتهى بعض الصوفيين من قبل ، الى اللذة الجنسية . وذلك لان الدعوة الى الحياة كثيراً ما تسير نحو الثورة على العرف والاخلاق والذهن . والرغبة في تحسسها وتجربة ما فيها من ألم أو لذة هي في الحقيقة رغبة في إثارة الغريزة على الذهن . وعندئذ يلتقي المهذار المستهتر بالجاد المفلس في ميدان واحد وان كان كل منهما يختلف من الآخر في بواعثه زد على هذا تعقد الحضارة القاعة وانها تشغلنا بشواغل وتخلق لنا من الواجبات ما يجعلنا ننسى أن انسانيتنا انما تنبت في أصل حيواني وأن الواجب

الاصلي هو أن يعيش كل منا ويتمتع بعيشه ثم بعد ذلك يمكنه أن يتكلم عن الوطن أو الصناعة أو الادب أو الفلسفة أو ما شاء من ثمار الحضارة القائمة هذا هو لورنس الثائر على الادب الانجليزي فانه يصيح بأعلى صوته : قبل أن تهذر عن فنون الحضارة وواجبات الانسانية تذكر اني أريد أن أعيش وأبلغ أقصر ما يمكنني من ملذات الحياة وآلامها وتجاربها « فاني أومن بدين عظيم هو الدم واللحم وهو يسمو على الايمان بالذهن »

واليك هذه النبذة المثيرة نقتبسها من بعض كلامه حيث يقول : « ماذا يعود علينا من هذا النظام الصناعي الذي يزحمتنا بالاقذار في حين لا يتمتع أحدنا بعيشه ؟ اننا نحتاج الى ثورة ولكنها لن تكون ثورة في سبيل المال أو العمل بل في سبيل الحياة . وليكن المال أو العمل شيئاً عرضياً . اني أزداد كل يوم ثورة ولكن ثورتى هي من أجل الحياة . وليست المادية التي يقول بها ماركس خيراً مما نحن فيه . لاننا انما نحتاج الى الحياة وتبادل الثقة حيث يثق الانسان بالانسان ويصبح العيش في الدنيا شيئاً حراً وليس شيئاً مكسوباً . وهذا العالم سيختار بين أمرين أما القيام بحركة كبيرة للسخاء والتسامح وأما انتظار الموت الكاسح »

ويجب على السارىء ألا يخطيء هذه الدعوة فيحسبها أنانية لا أكثر . فان لورنس كما قدمنا صوفي وان كانت صوفيته أشبه الاشياء بحب روسو للطبيعة كما ترى من هذه القطعة :

« أن الانسان في حاجة قبل كل شيء وفوق كل شيء الى أن يؤدي لجسمه حقوقه لانه هو الآن ، الآن فقط ، يعيش في اللحم ويقوى به . وأعظم المعائب عند الانسان أن يحس انه حي . ومهما قيل عن الموتى والذين لم يولدوا وعما يعرفون فانهم لا يعرفون الجمال الذي نعرفه عن الحى بحياة اللحم . وللموتى أن يعرفوا ما وراء الدنيا . ولكن هذه الجلالة التي نعرفها عن الحياة والجسم انما نحن الذين نعرفها ونعرفها لمدة معينة . ويجب علينا اذن أن نرقص طرباً لاننا نحيا ونلتئم في جسم الكون . لاني أنا جزء من الشمس كما أن عيني جزء منى . وقدماي تعرفان اني جزء من الارض كما أن دمي جزء من ماء البحر . وكذلك نفسى تعرف اني جزء من البشر وانها هي عضو حى في النفس البشرية الكبرى

كما أن روحى هو جزء من أمتى . وفى أعماق نفسى أنا جزء من أسرتى .
وليس عندى شيء هو مستقل مطلق سوى عقلى ولكن ليس للعقل كيان فى ذاته اذ هو لا يختلف من لمعة الشمس على سطح المياه

«وانفرادي اذن هو وهم لاني جزء من هذا الكل العظيم ولن أستطيع الفكاك منه. ولكن يمكنني أن أنكر صلتى به حتى أعود وكاني شظية منفصلة. وعندئذ أشقى. ونحن نحتاج الي أن نحطم الصلات الكاذبة التي تربطنا بغير الاحياء وخاصة تلك الصلات التي تربطنا بالمال. ونعيد الصلات الحيوية بيننا وبين الكون بالشمس والارض والناس والاسرة. ولنبدا بالشمس، وعندئذ نسير فى بطن نحو الصلات الاخرى»
واذا دعا كاتب انجليزى الى الشمس فأما يدعو الى الطبيعة لان الشمس عنده خلاء وريف وهجرة من المدن وعيش ساذج بعيد عن تكلف الحضارة ولكن لورنس يستهجن عند خصومه لانه يدمن الكلام عن اللذة الجنسية. وهو قد انغمس في الثقافة الجديدة وعرف شيئاً كثيراً عن العقل الباطن وألف فيه . وهذه الثقافة الجديدة التي تعزى الى فرود تنظر للذة الجنسية كأنها المحور للنشاط الانساني وهي تدعو الى الصراحة فى جميع مسائل الجنس أو شهوات الرجل والمرأة لأنها عرفت ان ثلاثة أرباع المجانين فى المارستان يرجع جنونهم الى قمع هذه الشهوات والخوف من التصريح بها . ولذلك لا يبالي لورنس ان يصف لك جمال المرأة وصفاً يجعل الحكومة الانجليزية تمنع قصصه من التداول . ثم هو لا يعبث أو يلغو بالكلام عن هذا الموضوع اذ يكفي القارئ أن يعرف انه يتفق ودعوة الى التمتع بالعيش . وهو يقول اتنا نقمع فى أنفسنا الشهوة الجنسية أو نخاف الكلام عنها حتى ليقف الجنسان وكأن كل منهما عدو للآخر فهو اما متوجس واما قانع . وهنا يقول :

« عليك أن تقبل وجودك الجنسي الجسمي ووجود كل حي آخر . فلا تخفه ولا تخف وظائفك الطبيعية . . . فان خوفك هو الذى يقطع بينك وبين أقرب الناس اليك وأعزهم عليك . ومتي قطع الناس ما بينهم عادوا متوحشين قساة متهجين . فاهزم الخوف من الجنس وأعد للطبيعة مجراها »

وليس من حقنا أن نطالبه بنظام وقواعد ، فانه داعية ينبه ويوقظ ، وعلى غيره يجب أن يقع عبء التنظيم ووضع القواعد

جيمس جويس

كان يقال مدة الحرب وعقبها انه مامن انسان رأى هذه الحرب إلا وقد صار غير ما كان قبلها . وهذا القول يصح على الذين درسوا فرود . فانه مامن انسان درس العقل الباطن ووقف على خفاياه وترهاته وأمانيه إلا وصار غير ما كان قبل أن يدرسه

وهذا جيمس جويس قد ابتدع طريقة جديدة في القصص لانه جعل موضوعه درس خفايا النفس معتمداً على مدارس من السيكلوجية الحديثة . فهو في قصة « أولس » لا ينقل اليك مايقوله أشخاص القصة بل يصف لك خواطرهم وهو يصفها باخلاص فلا يهمل الشئ لانه مستكره ولا يسهب في الآخر لانه محبوب . وقد قال هو عن الفن انه يجب أن يكون حراً بعيداً عما نكره وعما نحب . وكأنه يصف العلم بهذا القول

ولد جيمس جويس في دوبلين سنة ١٨٨٢ وتربى عند اليسوعيين الذين تتفشى مدارسهم في أنحاء ايرلندا . وقد بولغ في تربيته الدينية وجاءت المبالغة بالنتيجة العكسية التي تنتظر منها . لانه يعد الآن من أعداء الكنيسة الكاثوليكية ولكن هذه العداوة تدل بما فيها من حدة ومثارة على ان جيمس جويس لا يمكنه أن ينظر إلى الدين بعين المجانة والاهمال . وقد قيل عنه بحق ان جميع مؤلفاته لا تحتدم ولا تبلغ أقصى حماسها إلا في مكانين أحدهما عند ما يعالج جدلاً دينياً والثاني عند ما يعالج الشهوة الجنسية . وهو في كلا الموضوعين يجد ولا يهزل ويكتب وكأنه يريد التقرير ولا يبالى النتيجة بعد ذلك

ولكن هذا العقل الباطن الذي يلتفت اليه كثيراً في مؤلفاته يجعله يخرج على قواعد اللغة فيكتب الصفحات تلو الصفحات ليس فيها علامة من علامات الوقف أو الاستفهام أو نحوها مما يعرفه قراء الانجليزية . ويتفكك الاسلوب

لأن الخواطر التي يسردها مفككة لا تتصل

ولكي يقف القارئ على طريقته الجديدة يمكنه أن يقف نفسه فجأة وهو سائر في الطريق مثلاً ويبحت عن الخواطر التي ترد عفواً إلى ذهنه . فانه أمام نفسه وأمام الناس يسير وكأنه أحد الناس . ولكنه لو فحص عن خواطره لألفاها في غاية التبليل والاختلاط . ولو هو عرف كيف يحللها لوقف منها على حقيقة نفسه وصميم أمانيه ولباب الخطة التي يخطتها في حياته من حيث لا يعلم مثال ذلك انفرض اني أسير في الشارع خلف جنازة لأحد الأصدقاء أو المعارف فلو تركت ذهني ينطلق لوجدت طائفة من الخواطر ترد الى عن الموت وهي :

استلقاء على الظهر . نوم . انتفاخ البطن . ظلام . قولتير . لشبونه . زلزال . باب القبر . جرس للميت . قزان . صندوق . احراق الجثث . سببسر . مادية . برجسون . الخ

فكل هذه الخواطر ترد وهي في ذهني تتصل ولكنها أمام القارئ مفككة قد تغيب عنه دلالتها . ومن هنا الصعوبة في قراءة جيمس جويس لانه يصف لنا حياة الذهن ويكشف عن مخايب العقل الباطن . ويضطره هذا الموقف إلى أن يذكر لنا تلك الخواطر الجنسية التي تمر في ذهن الشاب أو الفتاة كما يذكر لنا فيما لا يقل عن صفحتين تلك الخواطر التي تمر بذهن أحد الأشخاص الذي يدخل المرحاض عقب امساك فهو يترث ويتلبث وكأنه يلتذ التخلص من امساكه وأحسن قصصه هو قصة « أولس » التي يصف فيها يوما واحداً من أيام حياته في أكثر من ٧٥٠ صفحة . وهذا الأسهاب يرجع إلى انه يعنى بخواطر العقل الباطن في حالى الصحو والسكر فيصف لنا بطل القصة وهو يحضر جنازة صديق ثم وهو في مطعم ثم يصفه وهو في ماخوردنس بين الحمر والبغايا ثم في منزل صديق ، ويسهب في وصف الخواطر الجنسية لأحدى النساء إسهاباً يبلغ حد البشاعة . والقصة تبتدىء من الساعة الرابعة بعد الظهر وتنتهى في الساعة الثانية أو الثالثة من الصباح

واليك هذه القطعة التي يصف فيها دخول بطل القصة في المطعم :
 « كان قلبه يبدق عند مادفع باب المطعم . وكان قد أدرك أنفاسه صنان من
 العصاراة الحريفة للحم وغسالة الخضراوات . هاهي الحيوانات تأكل
 رجال . رجال . رجال »

« قعدوا على مقاعد عالية إلى المشرب وقبعاتهم قد نحت إلى الوراء .
 وقعدوا إلى الموائد يطلبون الخبز . الخبز مجاناً . مجاناً . يشربون ويلتهمون لقما
 ضخمة من أطعمة تعوم في المرق وقد جمحت عيونهم وأخذوا يمسحون
 شواربهم . وهنا شاب شاحب له وجه كشحم الثرب يمسح كوبه وشوخته
 وسكينه وملعته بالمنشفة . مجموعة جديدة من المكروبات . وهنا رجل قد علق
 على صدره منشفة أطفال قد لوثتها الصلصة وهو يغترف الحساء ويصبها في
 بلعومه . ورجل يبصق في طبقه : غضروف لم يتم مضغه . ليس له أسنان للمضغ .
 طرف جامد من اللحم المشوى . يبلعه لكي يتخلص منه . لهذا السكران عينان
 حزينتان . قضم قضمة لا يمكنه أن يمضغها . هل أنا كذلك ؟ . « كما يرانا غيرنا ... »
 فهنا يرى القارئ رواية الحوادث تختلط بخواطر الذهن . وليس هنا
 ما يستبشع أو يغمض فهمه على القارئ . ولكنه في أمكنة أخرى لا يزال أن
 يصف ديدان العقل الباطن وهي ترقص في النتن

وليس جيمس جويس أول من عالج الخواطر الذهنية . فان كثيرين من
 القصصيين عالجوها في الحديث الذاتي حين يكلم الانسان نفسه لان هذه الخواطر
 هي حديث الانسان لنفسه . ولكن جيمس جويس جعلها موضوع القصة الاساسي
 ورواها على أصلها بلا تنقيح أو تهذيب

وجويس متشعب الثقافة يعرف التروجية وقد درس ابسن في هذه اللغة
 وعاش في فرنسا وتقلب بين عواصم أوروبا . واذا شك الانسان في القيمة التجديدية
 لمؤلفات لورنس أو هو كسلى فانه لا يستطيع أن يشك في هذه القيمة عنده .
 وهذا بالطبع لا يعنى الثناء عليه . فان طريقته يحتاج الى أن يصورها النقد من
 جهة ويحكم عليها الجمهور من جهة أخرى ان اقبالا وان نفورا

الدوس هو كسلى

يمكن الذين يؤمنون بالوراثة أن يؤيدوا إيمانهم بمثال الدوس هو كسلى .
فإن والده هو كسلى الكبير يذكر اسمه مقروناً الى اسم داروين . ولولا دفاعه
عن نظرية التطور وجهاده في الدعوة اليها لما اكتسبت كل ما اكتسبته من
أصدقاء وأعداء . وكذلك أخوه جوليان فإنه يعد من أعظم الدعاة إلى العلم
ونشره بين الشعب . وقد شارك ولز في كتابه الشعبي الضخم « علم الحياة »

ولم يبلغ الدوس الأربعين من عمره . ولكن اسمه ذائع الآن بين جميع
الأوساط الراقية . وثورته على الأدب القديم وأعلى الأدب في العصر الفكتوري
هى ثورة الذهن . فإن الرجل يكتب فى الأدب بالروح العلمى . وهذا خلاف
لورنس أو جويس اللذين يضعان الغريزة فوق الذهن

ولالدوس هو كسلى جولات فى الفلسفة والنقد تنبىء عن مياله العلمى
واعتماده على ذكائه وتعمقه فى الثقافة . وقاما يقرأ له الانسان فصلا فى النقد أو
قصة قصيرة أو كبيرة الا ويهره ذكاؤه ونشاطه الذهنى . ولكنه لهذا الذكاء
نفسه يميل إلى الهدم أكثر مما يميل إلى البناء . وذلك لأنه يجد أشياء كثيرة
تحتاج إلى الهدم

والقارئ لقصصه يذكر ولز فى وصف الاشخاص وطريقة الرواية كما يذكر
شو فى الزاهاة الذهنية . فانه يجعل العلاقة بين القارئ وبطل القصة حميمة حتى
لتثبت الصورة وتمثل من آن لآخر كأنها صديق قديم قد عرفنا خصاله وأحواله
منذ سنوات . وقد كان يقال عن تولستوى الاديب الروسى انه يمكنه أن
يصف للقارئ عقل الحصان . وهذا أحسن ما يقال فى التنويه بقدرة الكاتب .

ولكن كلام من ولز وهو كسلى يمكنه أن يصف عقل الطفل ويجعلنا نحبه ونذكره
كأنه ليس طفل القصة بل طفلنا نحن

أما في الحوار والنقد فان أثر برنارد شو واضح فيه . فانه يؤمن بالحرية ويبالغ في الايمان بها . ثم هو أحياناً كثيرة يندفع بالحماسة من الفن إلى الدعاية . وهذا الاندفاع ليس مقصوداً على الدوس هو كسلى فانه يكاد يعم جميع المجددين والتأثرين من الانجليز . فان الطبقة الجديدة من الشبان الادباء مثل ت . س . اليوت أو مدلتن موراي يعدون في طبقة الدعاة أكثر مما يعدون في طبقة الادباء . فان ت . س . اليوت يدعو الى البشرية ومدلتن موراي يدعو الى الشيوعية . ولكل منهما محجة لهذه الدعاية

وواضح انه في أطوار الانتقال يستحيل الادب الى دعاية لان الاديب يأخذ في تقرير القواعد الجديدة ونقض المبادئ القديمة . وقد يفنى عمره في تحقيق هذه الغاية قبل أن يستقر الجديد وينتفض القديم . ولكن هذا الاستقرار نفسه إذا لم تزرعه نزعات جديدة قد ينتهى إلى جمود . ولذلك يجب أن نقول أن في كل أدب حى بذرة من الدعاية . وخاصة في أيامنا هذه حيث تسير التطورات الاجتماعية في هرولة عجيبه

ويتفق الدوس هو كسلى مع سائر المجددين والتأثرين في درس السيكلوجية الحديثة ولا يفوته التحليل النفسى فى كثير من المواقف والاحوال . فان المرأة التى تقبل الطفل تذكر حبيبها وقبلته وعناقه كما ترى من هذه القطعة :

« ثم تذكرت المثل فجأة والتفتت اليه باندفاع العاطفة وقبلت خده المستدير وقد علتة حمرة الخوخ . وكانت البشرة ناعمة باردة كأنها ورقة الزهرة . وتذكرت زوجها فتخيلته وهو يقبلها عند ما يعود من عمله إلى البيت . وهذا المساء عند ما تقعد هى لسكى ، تخطط يكون هو قد قعد قبالتها يقرأ تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية بصوت عال . أنها لتعبده وهو قاعد أمامها يقرأ فى نظارته وذكرته قراءته وكيف ينطق ببعض الالفاظ فاستعادت ذكرها وشعرت برغبة حادة لو أنه كان إلى جانبها الآن فتطوى ذراعيها على عنقه وتقبله »

وكل هذه الخواطر انما وردت عقب تقبيلها للطفل . ولو كان جيمس جويس هنا في هذا الموقف لذكر كل هذه الخواطر ثم زاد عليها حتى يفضح العقل الباطن كله

ولا لدوس هو كسلي مقال عن أزياء الحب يعبر الى حد ما عن طريقته في معالجة القصص وعن رأيه في أخرج المواقف القصصية . وهو لا يبعد كثيراً عن برتراند روسل وان كان لا يصرح بكل ما يقوله هذا العالم الاجتماعي . فهو يرى أن للحب أزياء كما للملابس ولكن أزياء الحب أغمض . والرى الشائع الآن هو نوعان يتصارعان . أحدهما ذلك المثل الأعلى الذي ورثه الفن والفتاة عن ثقافة المسيحية والقصص الخيالية . والآخر هو ذلك الذي اكتسبناه عن السيكلوجية الحديثة . والاول يعمل لملازمة العرف والعادة والثاني يعمل لالغائهما . وقد ساعدت الحرب على تفشي النوع الثاني فجاءت نظريات فرود لتبرير الواقع وليس للدعوة اليه . فان الشبان يتكلمون الآن عن الضرر الناشئ من قمع الشهوات وضرورة التفرج والتنفيس واكتساب الخبرة بالتجربة وقد كان الفريد دوموسيه يقول : « انى أحب وأريد أن أذوى . انى أحب وأريد أن أتألم »

ولكن الشاب أو الفتاة لا يريدان التألم وانما يريدان التمتع . ولكن المبالغة في التمتع تعود انغمساً أو هالكاً لا يقتل الشهوات فقط بل يتلف على المرء لذة التسلية . والمبالغة في الحرية كالمبالغة في التقيد سواء . ولذلك يرى الدوس هو كسلي أن الرى الحاضر للحب سوف يزول لان الحب الذي يسهل تحقيقه ليس عظيم القيمة . وفي التاريخ ما يدل على أن الناس حين ترخصوا في الحب وأباحوه عادوا ، وقد أنفوا واستنكفوا ، الى ما يشبه الزهد والانكفاف عن الشهوات . ولكنه يرى هنا الحاجة إلى ايجاد الزواجر النفسية التي تعمل للقمع وتحول دون الاباحة . وهو لا يؤمن بالزواجر الدينية التقليدية فهو لذلك يبتدع زواجر جديدة ويقول اننا يجب

أن تؤمن بما يسميه «الشخصية الانسانية» وأن ننشأ على احترامها ونربي أبناءنا على أن يجدوا منها وفيها تلك القيود التي كان آباؤنا يجدونها في الاخلاق التي ورثوها عن المسيحية والقصص الخيالية

وأنت اذن ترى أن العقدة التي تشغل بال الدوس هو كسلي هي العقدة الدينية وانه من هذه الناحية بشرى مثل ت.س. اليوت زعيم «البشرية» في انجلترا والولايات المتحدة

والحق الذي لا يمكن انكاره أنه ليس في انجلترا أديب يؤبه به الا وللمدين أكبر مكانة في ذهنه سواء في ذلك المجدد أو النائر والشاب أو الشيخ . وقد يعد القارىء بعض هؤلاء الادياء كفاراً أو ملحدين لأنهم يعارضون المذهب السنى للدين ولكنه لا يتمالك مع ذلك من الاعتراف بأنهم يجاهدون ويستنبطون الافكار والآراء لكي يقنعوا أنفسهم بأنهم يقفون من الكون موقف الاخلاص والاجتهاد للخير